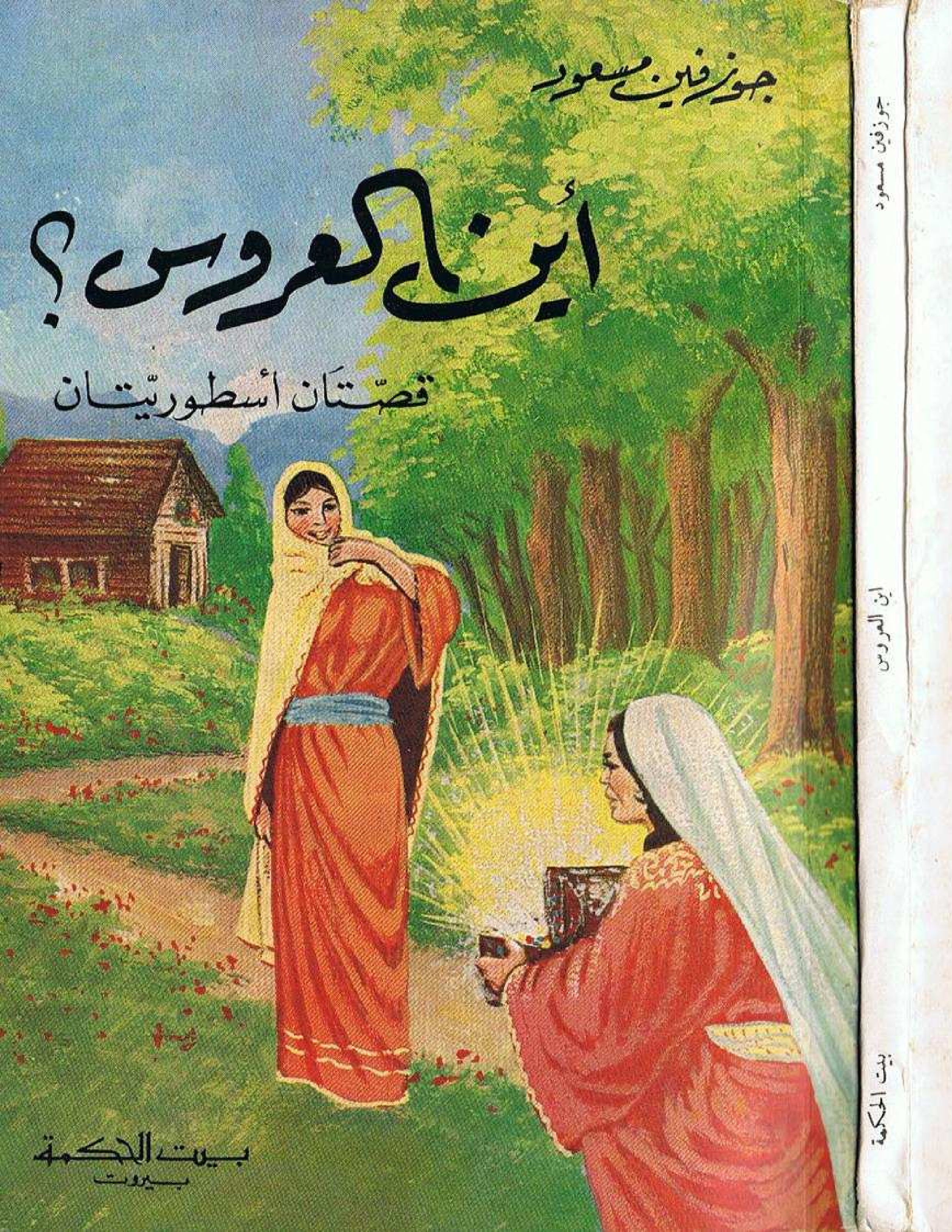


جوزفين مسعود
أين العروس
بيت الحكمة

منشوراتنا القصصيّة

يصدرها : بيت الحكمة - بيروت

١	يا بياع السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود
٢	ابو الخيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود
٣	حدثني يا ابي	لكامل العبد الله
٤	اسرى الغابة	لانطوان مسعود
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود
٦	يوم عاد ابي	لرشاد دارغوث
٧	صندوق أم محفوظ	لروز غريّب
٨	جدتي	لجبران مسعود
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني
١٠	عازفة الكمان	لصموئيل عبد الشهيد
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث
١٣	يوم غضبت صور	لنضال ابي حبيب
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث
١٥	الانامل السحرية	لجوزفين مسعود
١٦	المغني الكبير	لروز غريّب
١٧	جلجامش	لتوما الخوري
١٨	نور النهار	لروز غريّب
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود
٢٠	رنين الخناجر	لجوزفين مسعود
٢١	النجمتان	لروز غريّب
٢٢	اين العروس	لجوزفين مسعود
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصر الله
٢٤	الغرفة السرية	لصموئيل عبد الشهيد
٢٥	النار الخفية	لروز غريّب
٢٦	الحاج بحبح	لرشاد دارغوث
٢٧	جوهرة الجواهر	لجوزفين مسعود
٢٨	دهليز الغرائب	لفكتور حكيم
٢٩	التجاريب	لولي الدين يكن
٣٠	الصحائف السود	لولي الدين يكن
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا	(٦ كتب للاطفال)
٣٢	كوب من العصير	لجوزفين مسعود
٣٣	المنجّم « عصفور »	لروز غريّب

الثمن ٦٠٠ ق. ل.

جُوزفين مسعُود

أين العروس؟

قصتان أسطوريتان

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « زكريا كايا »

الطبعة الثانية ، بيروت – لبنان ، ايار (مايو) ١٩٧٥



١

ـــ يا سامعينَ الصوت ! يا سامعين الصوت !

ولَعْلَعَ صوتُ المُنادي من حيٍّ إلى حيّ ، ومن زقاق إلى زقاق ، فكان لِندائه فِعلُ السِّحْرِ في سكّان المدينة : خرج الأولاد إلى الأزِقَّة مُستَطْلِعين ، وامتدَّتْ أعناق النِّساءِ من النَّوافذ ، وشُلَّتْ أيدي العاملين ، وهَمَدت أصوات المتحدِّثين . حتى الأطفالُ كفُّوا عن الصِّياح أو البكاء .

وعاد صوتُ المنادي يُدَوِّي في أَرجاء المدينة الساكنةِ الهادئة :

ـ يا سامعين الصوت !..



المنادي يعلن النبأ السعيد

وحينَ أدركَ المنادي أنَّ المدينةَ كلَّها تُصغي إليه راحَ يستأنفُ النداءَ :

ـ يا سامعين الصوت ! إنَّ مَولانا السلطانَ المُعَظَّمَ قد رُزِقَ غُلاماً أسْماهُ « ميمون » . وهو ، إذ يُزِفُّ لأبناء رَعِيَّتِهِ هذا النَّبأَ السارَّ ، يدعوهم جميعاً ، رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً ، أغنياءَ وفقراءَ ، إلى قصره ، يَقْضُون فيه سَبْعَةَ أيّامٍ بلَياليها يأكلون ويشربون ويرقصون ويَمْرَحون .

وما انتهى المنادي من كلامه حتى عادت المدينةُ إلى الحياة ، وزادَ فيها الصَّخَبُ ، وعَلَتِ الأصوات ؛ وراح كلٌّ مَنْ عَلِمَ بالنبأ ينادي الأحبابَ والأصحاب ، مِمَّنْ لم يَسمعوا النداء ، ليَنقُلَ إليهم البُشْرى السعيدةَ .

أحقّاً رزق السلطانُ وَلَداً ذَكَراً ؟! لقد مَلَّ الناسُ انتظارَ الوَريث ، وخفَّت في القلوب حرارةُ الصلاة ، ويَئِسَ السلطانُ من رحمةِ ربِّه بعد خمسِ

وعشرينَ سنةً من زواجه . خمسٌ وعشرون سنة
مَضتْ ! وها إنّ الله يَمُنُّ عليه بغلامٍ جميل !

إنطلقتِ الأغاريد من أفواه النساء ، وعَمّ
الهَرْجُ والمَرْجُ أحياءَ المدينة ، وأَقْفَلت الحوانيتُ
أبوابَها . وعاد النَّشاطُ إلى البيوت ، ففُتِحت فيها
الخزائنُ ، وامتدّت الأيدي إلى الأَلبِسة المحفوظةِ
للمناسَبات . وحارت ربّاتُ البيوت في ما يَختَرْنَ
لأنفُسِهنّ من وسائلِ الزِّينةِ والتَّبرُّجِ ، وما يَنتَقين
للأَزواجِ والبَنينَ والبنات من مَظاهرِ الهندامِ اللّائق .
إنّها فُرصةُ العمر يَقضُونها في قصر الأَحلام !

★

... وزَحفت المدينة إلى قصر السلطـان . كانت
أبوابُه مُشرَعةً تستقبلُ الوافـدين على الرُّحْب
والسَّعة ، في حينَ زُيِّنت حدائقُه بأجملِ الزِّينات ،

وفُرشت قاعاتُه بأفخر الأثاث ، ومُـدّت في
باحاته المَوائدُ العامرةُ بألذِّ المأكولات والمشروبات .

أَقبلَ المدعُوُّون على المَقاصِف يأكلون هَنيئاً
ويَشربون مَريئاً . وما إن امتلأَت البطونُ واطمأنّت
القلوب ، حتى اسْتَلْقى الشيوخُ على أعشاب الحدائق
والساحات مُستَرْخِين ، وقـام الشُّبّانُ والشابّاتُ
يُحْيُون الرَّقصَ والدَّبْكَةَ ، وعلَتْ أصـوات
النِّسوةِ بالأَهازيج ، وصَفَّقت أيدي الرجال بأحسنِ
الإيقاع . وأقامُوا على هذه الحالِ من بَسْطَةِ العيشِ
وانشراحِ الصَّدر سبعةَ أيّام كاملة .

وما لَبِثَ السلاطينُ والأمراءُ والأعيانُ أن
تَوافَدُوا من كلِّ الجهات يُهنِّئون بالمَولود الجديدِ ،
وقد حملوا إليه وإلى أبَويه ألطفَ الهدايا وأثمنَها .

وفي صباحِ أحـدِ تلك الأيامِ ، والبَهجةُ في

ذُرْوتها ، طَرقَ بابَ القصر ، في مَن طرقـــه ،
سيِّدةٌ عجوزٌ مَهيبة . طَلبت مقابلةَ الأميرةِ أمِّ
« ميمون » فأذِنت لها بالدُّخول . وكانت الأمـيرةُ
تحمِلُ بين ذِراعَيهـــا طفلَها الرَّضيع وتضمُّه إلى
صدرها بسعادةٍ لا توصَفُ ، فتقدَّمت العجوزُ من
الطفل ، ونظرت إليه بإمعـــان ، وتَمْتَمَتْ ببعض
العِبارات الغامضة ، ثم قالت :

ــ مولاتي الأميرة ! إليكِ هذه العُلبةَ الصغيرة .
إنَّها هديَّتي للطفل الجميل . حافِظي عليها ، وإيّاكِ
أن تفتحيها ! ويومَ يَبلُغُ الثامنةَ عَشْرَةَ من عُمُره
أحضُرُ إلى هذا المكان .

قالت العجوز هذا الكلامَ واختفت عن الأنظار ،
فشهَقت الأميرةُ من فَرْط العَجَب . وقامت للحال إلى
صندوقٍ حديديٍّ تحتفظ فيه بمُجوهَراتها فوضعت فيه

العلبة الغريبة ، وقد أدركت الأَميرة لَتوِّها أنَّ
العجوزَ ساحرةٌ قديرة ، وأنَّ في العلبة سرّاً يجبُ أن
تحافظ عليه .

٢

كانت الأمـيرة أمُّ « ميمون » قد تَبنَّت طفلة
صغيرة ماتت عنها والدتُها ، وكانت جاريةً في القصر .
ربَّت الأميرة الطفلةَ اليتيمةَ « زينة » وعطَفت عليها ،
فنشأت في كَنَف الأميرةِ مُعزَّزةً مكرَّمة . كانت
« زينة » حُلوةَ الوجه ، جميلةَ التَّقاطيع ، على الرُّغم
من سَواد بَشَرتها . ولم تتخلَّ الأميرة عن « زينة »
بعدما رُزقت « ميمون » ، بل ظلَّت لها الأمَّ الحنونَ
العاطفة . ولقد زادَ حبُّ الأميرة لها ، ونَما عطفُها
عليها ، لإيمانها الشديدِ بأنَّ حِضانتَها تلك اليتيمةَ
المسكينةَ قد استنْزلَت على زوجها وعليها رِضى

الله ، فحقّق لهما أملَ العمر ورزقَهما طفلَهما.

وهكذا نشأت « زينة » في رِفْقة « ميمون » ، فدرَجا معاً في مَلاعب الطُّفولة ، وتَقاسَما الأَعيادَ والهدايا . وتَقدَّمَ بهما العمرُ رَبيعاً بعد ربيع ، حتى بلغت « زينة » الثالثةَ والعشرين ، و « ميمون » الثامنةَ عَشْرَة .

باتت « زينة » صبيَّةً طويلةَ القامة ، ساحرةَ النَّظرات . تُقدَّم للزواج بها نُخْبَةُ شُبَّان المملكة ، ولكنَّها كانت تَرُدُّ خاطِبيها خائبين . وحارَ السلطانُ وزوجُه في أمرها ، ففاتَحتْها الأميرة في هذا الموضوعِ غيرَ مَرَّةٍ محاوِلةً إقناعَها بالزواج ، ولكنْ من غير جَدْوى . إلى أن كان يومٌ طَلب فيه يدَها القائدُ « جوهر » ، قائدُ جيش السلطان ، وكان شابّاً مِقْداماً شُجاعاً ، عُرِفَ بنُبل أصله وكَرَمِ أخلاقه.

ولكنَّ نَصيبَ « جوهر » كان الرَّفْضَ المُعتاد . عند ذاك لم تَتمالك الأميرةُ أن عاتَبت « زينة » قائلةً :

ــ ما لَكِ يا « زينة » تَرْفُضين طلبَ القائد « جوهر » ، وهو زينةُ شبابِ المملكةِ ؟ إنّ أشرفَ الأميراتِ مَكانةً ، وأعرقَهنّ نَسباً ، يتمنَّين لو يَنَلْنَ من رضاه ما نِلْتِ !

ــ مولاتي ! أرجوكِ ! دَعي عنكِ أمرَ زواجي ، وفكِّري بزواج الأمير « ميمون » ، فهو أَحقُّ منّي بتفكيرك .

ــ يا بُنَيَّتي ، أصغي إليَّ ولا تُعانِدي . إنّ « جوهر » شابٌّ نادرُ المِثال ، فحَرامٌ أن تُضيِّعي عليك فرصةَ الزواج به . وما إصراري عليكِ إلاّ لحبّي لك ورغبتي في الاطمئنان إلى سعادتك.

— رَجَوْتُك ، مولاتي ، أن تُعفيني الساعةَ من ذِكر الزواج . لِنترُكْ أمرَه للظُّروف تتصرَّفُ به كما تشاء . إنّ وقتَ زواجي لم يَحِنْ بعدُ .

وسكتت الأميرة على مَضضٍ ، وأخذت تتساءل في حَيرةٍ : « تُرى ، ما سببُ رفضِها ؟ » ولكنّها ما لبثت أن انتقلت بتفكيرها إلى وَحيدها : ها هو اليومَ قد بلغ الثامنة عَشْرَةَ من عمره ، وهو جميلُ الطَّلْعة ، مَمشُوق القوام ، في قسماته نبلُ المَحْتِد ، وفي نظراته طِيبُ الفُروسيّة . لقد طَعَنت هي وزوجُها في السِّنّ ، فلا بُدَّ لهما من التفكير بتزويجه . أَجَلْ ، لقد صَدَقَتْ « زينة » حين دَعتْها إلى ذلك.

وفجأةً تذكَّرت الأميرةُ الساحرةَ العجوزَ التي زارتها على أثر ولادة « ميمون » . وعادت إليها

صورةُ هديَّتِها الغريبة التي ما زالت تحتفظ بها في صندوقها الحديديّ طَوالَ تلك السنوات ! تُرى ، ماذا في تلك العلبة ؟ لماذا حملتها العجوز هديَّةً « لميمون » ؟

وفيما هي تفكِّرُ قَطعت عليها وَصيفتُها حَبْلَ تأمُّلاتها :

— مولاتي ! بالباب عجوزٌ تطلُبُ الدُّخول !

وخَفَقَ قلبُ الأميرة بسرعة : يا لَلصَّدْفَةِ المبارَكة ! ويا لَدِقَّة العجوز وصِدْقِ مَواعيدها ! لقد وَعدتْها بزيارتها يومَ يبلغ الأمير الثامنة عشرة ، وها هي الآن تَبرُّ في وعدها من غير إبطاء !

ولمّا وجدت الوصيفةُ سيِّدَتَها مستغرقةً في التفكير قالت :

— مولاتي ! أتسمحين لها بالدخول ، أم إنكِ تريدينني أن أطرُدَها ؟

— تَطردينها ؟! مجنونةٌ أنتِ ! أَدخِليها حالاً ! فأنا بانتظارها على أحرَّ من الجَمْر !

ودخلت العجـوز تَجُرُّ رِجلَيهـا جَرّاً وهي تتّكىء على عصا ، وحيّت :

— ألسَّلامُ على مولاتي الأميرة !

— وألف سلام عليكِ يا خالةُ ! طـالَ واللهِ غيابُكِ ، وأنا على مثل النـارِ أنتَظِرُ قُدومَك وانكشافَ سرّ العلبة التي حَمَلتِها لي قديماً .

— ها أنا بين يدَيك . كيف حـال سيِّدي الأمير ؟

— شبابٌ ، وقوَّة ، وجمـال ، ولُطف .

هذا هو « ميمون ». وأرجو أن تَكتَمِلَ بـه فرحتي وفرحةُ أبيه فنزوِّجه ونَقِرَّ به عَيناً .

— ومن أجل تَحقيقِ هذه الأُمْنِيَّةِ حضَرْتُ إليكِ اليومَ . أين العلبةُ ؟

— لقد حافظتُ عليها يا خالة ! وإنّي لَبالِغةُ



الساحرة والأميرة الأمّ

الشَّوق إلى معرفة سرِّها !

ـــ حسناً فعلتِ ! ولقد حانَ الأوانُ لأُخبرَك عن السرّ ! أعطِيني العلبة .

وقامت الأميرة إلى الصندوق ففتحته ، وأخرجت العلبة بحَذَرٍ شديد وسلَّمَتْها إلى الساحرة ، فتناولتها هذه ، وبحركةٍ سِحريَّة فتحتهـــا ، فامتدّت أنظارُ الأميرة إلى داخل العلبة تحدِّقُ غيرَ مصدِّقةٍ مـــا تراه ! كان في العلبة أربعـــةُ أحجارٍ صِغار ، كلُّ واحدٍ منها بحَجْم الجوزة . ونظرتْ إلى الساحرة متسائلةً :

ـــ يا خالة ! أهذا كلُّ ما في داخل العلبة ؟

ـــ نعم يا ابنتي .

ثم أمسكت العجوز بالأحجار تُقلِّبُها بين يدَيها ،

وأردفت قائلة :

ـــ إنّ زواج ابنك ومستقبلَ حياته مرتبطان بهذه الأحجار . وإليكِ التفاصيلَ : خُذي العلبة هذه منذ اليوم ، وابحَثي لابنك عن عَروسٍ هذه أوصافُها ...

وامتدَّت يدُ العجوز إلى العلبة ، فتناولت منها حجراً وقالت :

ـــ فتاةٌ سوادُ شعرِها كسوادِ هذا الحَجَر ...

ثم تناولت الحجر الثاني :

ـــ وخُضرةُ عينَيها كاخضرار هذا ...

ورفعت الحجر الثالث :

ـــ وحُمرة شفَتيها كاحمرار هذا ...

ثم سحبت الحجر الأخيرَ وقالت :

— أمّا لون بشَرتها فوَرْديٌّ كلونِ هذا الحجر .

عليكِ يا ابنتي أن تجدي الفتاة التي تُطابقُ أوصافُها ألوانَ هذه الأحجار ...

وقاطعَتْها الأميرة بانفعال :

— ولكنْ يا خالة ! كيف يُمكنُني التأكُّدُ من هذه الأوصاف ؟ ربَّما خانَتْني عيناي وأَخطأتُ في الحُكْم !

— لا تخافي يا ابنتي ! إنّ لهذه الأحجارِ قوّةً سحريّةً خارقة ! حالَما تجدِين الفتاة المَنشودة ستتحوَّلُ الأَحجار إلى مجوهَرات أَصيلةٍ وهَّاجة لم تشاهدي مثيلاً لها في الوجود . إنَّها أثمنُ مجوهراتِ العالَم وأَغلاها ! إبحثي منذ هذه الساعةِ عن الفتاة ، فهي التي اختارهـا اللهُ لوحيدك ، ولقد أرسلَني في هذه الأَرض الفانية لأحقِّقَ أوامرَه ... هذه الفتاةُ

وحدَها تُسعِدُ ولدَك ... أمّا إذا لم يَقبل بها ، وتزوَّجَ بغيرها ، فحياتُه في خطر ... إنّ مهمَّتَك شاقّةٌ ، ولكنَّها غيرُ مستحيلة .

وبعد توقُّفٍ قصير عادت تقول :

— مولاتي الأميرة ! حَذارِ أن تُخبري أحداً بقوّة الأَحجار السحريّةِ وتَحوُّلِها إلى مجوهرات أَصيلة ثمينة ! فحالَما تتلفَّظين بكلمةٍ عنها تَفقِدُ القوّةَ التي لها ، وبالتالي تخسَرين الدليلَ الذي سيَهديك إلى عروس ابنك ... لا تنسَي كلامي هذا !

وللحال اختفت الساحرةُ وهي تتلفَّظ بآخرِ كلمة .

٣

جلست الأميرةُ تفكِّرُ وتستعيدُ كلامَ الساحرة ،

وهي في حيرةٍ في أمرها . ثم أَخذت الأَحجار بين يديها وراحت تقلبها وتُحدِّق إِليها وهي لا تصدِّق ما سمعَتْه عن سِحرها . إِنَّها لم تشاهد قَطُّ أَحجاراً بجمال هذه الأَحجارِ الصغيرة ! أَحقٌّ ما تتمتَّعُ به من قوَّة سحريّة ؟ لن تخـبرَ أحداً بأمرها ! ستُخفي السرَّ حتى عن زوجها وولدها ! ستُطيع أوامرَ الساحرة ، فهي تُؤمنُ بصِدقها وإِخلاصها ... ولكنْ ، من يساعدُها في سَعيها ؟ بمن تستعينُ ؟

وهنا دخلت عليها « زينة » وجلست بقُربها ، ثم قالت لها :

ــ ما بالُ سيِّدتي مهمومةً ؟ هل بإِمكاني أن أُخفِّفَ عنها بعضَ ما بها ؟

ــ نعم يا بُنَيَّتي ! إِنَّ زواج الأمير « ميمون » يَشغَلُ بالي .

ــ ماذا ؟ زواجُ الأمير يشغل بالك ؟ كيف ، بحقِّ السماء ؟

ــ أُنظري جيِّداً إِلى هذه الأَحجار الصغيرة . فماذا تَرَين ؟

ــ يُخيَّلُ إِليَّ أَنَّها حِجارةٌ كريمة ، لولا جمودُها وقِلَّةُ لمعَانها !

ــ أجل ، إِنَّها في الحقيقة أَحجارٌ جميلة تشبهُ الأَحجار الكريمة ، لأَنَّها نادرةُ الوجود . جاءتني بها سيِّدةٌ عجوز يوم رزقني اللهُ ولدي « ميمون » ، وها هي اليومَ قد عادت إِلى زيارتي وطلبت منّي أن أبحث له عن عروس تُطابِقُ أوصافُها ألوانَ هذه الأحجار . فأنَّى لي أن أَجِد الفتاةَ المطلوبة ؟ هذا ما يحيِّرُني .

وَجمَتْ « زينة » ولم تُجِبْ ... إِنَّ أوصاف

الفتاة تُخالفُ أوصافَها هي : فلونُ بشرتِها أسودُ فاحِمٌ ، وكذلـك لون عينيها وشفتَيها وشعرها !

وراحت تفكِّر : « يا للسَّاحرةِ الملعونةِ ! إنّـي أُمَنِّي النَّفْسَ بالزواج بالأمير « ميمون » منذ كنّا صغيرَين ... وكَبُرَ حُلمي ونما ، وأصبح في خيالي حقيقةً أسعى إلى تثبيتها وتحقيقِها . صحيحٌ أنّني سوداءُ البشرة ، ولكنّني حلوةُ التَّقاطيع ، جميلةُ القَوام ، طَلْقةُ اللِّسان ، ذكيّةٌ أُتقنُ آدابَ السُّلوك ... تبّاً لهذه الأحجار !.. تبّاً للعجوز الشَّمْطاء ! »

ولمّا تنبَّهت الأميرة لسكوت « زينة » قالت لها :

— « زينة » ، يا ابنتي ، ماذا دَهاكِ ؟ ما لكِ ساكتةً واجمة ؟ لا بُدَّ أنّك تشاركينني هَواجسي .

تمالكت « زينة » نفسها ، وأَخْفَتْ ما يَعتمِل في

نفسها من هَمٍّ وبُغض وحِقْد . ثم ابتسمت للأَميرة :

— لا عليكِ يا مولاتي ! سأُساعدك في إيجاد العروس !

— وكيف ذلك يا فتاتي؟

— أقيمي الحفَلاتِ الساهرةَ ، وادْعي إليها فَتَيات المملكة ، وقارني بين الأَحجار وبينهنّ . ولا شكَّ أنَّك ستجدين الفتاةَ المنشودة.

— إنّها لَفكرةٌ رائعة ! قُومي بنا نبدأ بتنفيذها .

★

دُعيت أميراتُ البلاد إلى سهرةٍ تُقام في قصر السلطان . كانت ليلةً من ليالي العمر تنافَسَتْ فيها

الأميراتُ تأنقاً وتبرُّجاً . كانت كلٌّ منهنّ تُمَنّي
النفسَ باجتذاب الأمير .

وجالت الأميرة الأمُّ بين المدعوّات وهي تَحمل
بيدها علبةَ الأحجار ، فكانت تُجالِسُ كلَّ فتاة على
حِدَةٍ وتقارن ، خِلْسَةً ، بينها وبين الأحجار ...
وامتدَّت السهرةُ حتى الساعاتِ الأُولى من الصباح ،
ولكنَّ الأميرةَ لم تجد مُبْتغاها : فقد بقيت الأحجارُ
هي إيّاها ، لم تتغيَّر ، ولم تحدُث بالتالي الأعجوبةُ .
كان في الحفلة فتياتٌ ساحراتُ الجمال ، ولكنْ ما
من واحدةٍ منهنّ اجتمعت فيها الأوصافُ المطلوبة
كلُّها .

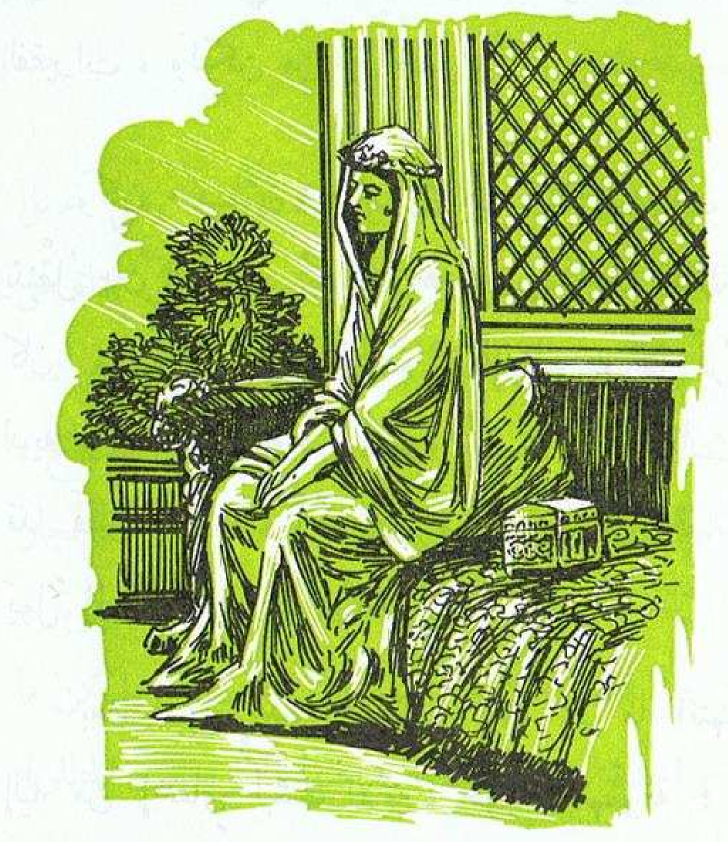
ولمّا لم تجد الأميرةُ ضالَّتَها في صفوف
الأميرات حاولت أن تَبحث في صفوف مَن هنَّ
دُونَهنَّ مَرتَبَةً ، فدعتْ فتياتِ الطبقة الوُسْطى

إلى حفلة كتلك التي أقامتْها للأميرات . وأخيراً دعت
الفقيرات ، ولكنْ من غير جَدوى .

وكان « ميمون » ، خلالَ هذه السَّهراتِ ،
يتنقَّلُ بين الصَّبايا ، يُحادثُ هذه ويُضاحِكُ تلك .
كان مهذَّباً باديَ اللطفِ والإيناس ، لا فَرْقَ
لديه بين غنيَّة وفقيرة ، أميرةٍ أو عامّيَّة . وكان
قد فَطِنَ إلى رغبة أُمّه في تزويجه ، ولكنَّ قلبَه لم
يَمِلْ إلى أيَّةٍ من المدْعوّات .

بعد انتهاء هذه الحَفلات كلِّها إلى ما انتهت
إليه من إخفاقٍ لبثت الأميرةُ حزينةً مهمومة : ما
حيلتُها في إيجاد العروس ؟ إنّ فتياتِ المملكة
كلَّهنّ قد حضرْنَ إلى القصر ، حتى البعيدات
منهنّ . فكيف العملُ الآن ؟..

... أمّا « زينة » فكانت سعيدةً ! لم تجد الأميرةُ



الأميرة الامُّ تفكِّر بأمر ابنها

الفتاةَ لابنها ، ولا مَفرَّ لها من ان تيأس وتستسلم . إذ ذاك يُتاحُ « لزينة » أن تحقِّقَ حُلمَها فتتزوَّجَ الأمير !

وزاد تقرُّبُ « زينة » من « ميمون » ، فباتت لا تفارقه في حَلِّه وتَرْحالِه : تسهرُ معه ، ترافقه إلى الصَّيد ، تُباحثُه في شؤون المملكة ، تُسانِدُه في كلِّ رأي ، تتنزَّه معه في الحديقة . وكان للحديقة في نفسه وَقْعٌ حبيب ؛ فقد حَمل إليها منذ الصِّغَر أغلى الأزهار وأثمنَ الفاكهة ، وأشرفَ على زَرْعها وتَنسيقِها ورِعايتِها . لذلك كان يقضي فيها ما يتيسَّرُ له من صُبحه ومسائه ، فيزورُها وحيداً حالماً ، أو برفقة الأَصحاب والخُلاّن . ويزورها برفقة « زينة » .

لم يفطن الأمير « ميمون » إلى غاية « زينة » من مُلازَمته . كان يحبُّها حباً أخويًّا خالصاً ، فلم يَخطِرْ له يوماً ببالٍ أنَّها تخطِّط للزواج به .

٤

وذاتَ صباحٍ جلست الأميرة في غرفتها مُطرِقَةً واجمة : فزوجُها السلطانُ مريضٌ ، وهو يُلِحُّ عليها في تزويج وحيدهما علّه يفرح به قبل أن يَختطفَه الموتُ . ففي كلِّ يومٍ يسألها عن حفلات القصر ، وهل توصَّلَتْ إلى اكتشاف الفتاة التي تليق بابنهما . وكان ، كلَّما أجابَتْه بالنَّفْي ، يَزدادُ غَمّاً ومَرضاً . وهكذا تَنازَعَ الأميرةَ عاملانِ : عاملُ الخوفِ على زوجها ، وعاملُ الإسراعِ في تزويج وحيدها إطاعةً لأُوامر الساحرة وحِرْصاً على سعادته .

وفجأةً طُرِقَ البابُ ، وأقبلت الوصيفةُ تستأذِنُها في دخول الساحرة العجوز عليها ، فأذِنت لها في الحال ، واستقبلَتْها أحسنَ استقبال . واندفعت

الأميرةُ تَبُثُّ الساحرةَ ما في قلبها ، كأنها تنتظر عندها العلاجَ الشافي :

— كم أنا سعيدةٌ بحضورك يا خالةُ ، وتوّاقةٌ إلى مَشُورتك ! إنّ زوجي لمريضٌ ، وهو يستعجِلُني في زواج « ميمون » . ولكنّني لم أُوَفَّق بعدُ إلى الفتاة . فما العملُ ؟ أنْجِديني !..

— لا تجزَعي يا ابنتي ! لقد جئتُ الآن لأُخفِّفَ عنكِ ما بك . فأنا عالمةٌ بما يَجُولُ في نفسك من قلَق ، وبما يَملأُ عالَمَك من أحزان . هَوِّني عليك واطمئنّي بالاً : سيُشفى السلطانُ من مرضه ، وسيتزوّجُ الأميرُ بفتاته . ولكنْ عليك بمتابعة البحث ! قومي إلى بيوت الناس ، ولا تترُكي بيتاً ولا كوخاً من غير أن تَدخُليه . لقد أخبرتُك سابقاً بأنّ مهمّتك ليست سهلةً ، فعليكِ بالصبر

فهو مفتاحُ الفَرَج .

وانفرجت أساريرُ الأميرة ، وعاد إلى قلبها الأملُ . واختفت العجوزُ عن ناظرَيْها كعادتها .

★

في صباح اليوم التالي تنكَّرت الأميرةُ في زيّ امرأةٍ غنيَّةٍ ، وطلبت من « زينة » مُرافقتَها ؛ فخرجتا يَتبعُهما خادمُ الأميرة الخاصُّ . كان الخادم الأمينُ قد قام بإحصاء بيوتِ المدينة بيتاً بيتاً ، حتى الأكواخِ منها ، كما أَمرَتْه سيِّدتُه ، استعداداً لزيارتها ، علَّها تجدُ في أحدها الفتاةَ التي تطلبُها . وكانت حُجَّةُ الأميرةِ في دخول البيوتِ أنَّها امرأةٌ غنيَّة تريد زوجاً لابنها .

بدأت الجولاتُ بالأَحياءِ الغنيَّةِ ، ثم انتقلت إلى أحياء الطَّبَقة الوُسطى ، ثم الفقيرة ، ودامت

أُسبوعاً كاملاً . وبعد كلّ جولة كانت الأميرة تعود إلى قصرها منهوكةَ القوى ، يائسةً ، في حينَ كانت « زينة » تزدادُ اطمئناناً وثقةً بقُرب تحقيق حلمِها الكبير ، وهو أن تتزوَّجَ « ميمون » .

لم يبقَ أمامَ الأميرةِ إلاّ زيارةُ بعض الأكواخ النائية ، فزارَتْها يوماً ، غيرَ أنَّها لم تجد فيها بُغْيَتَها . وبحركةِ يأسٍ التفتتْ إلى خادمها وقالت:

— يا « شفيق » ! كم بقي من البيوت نزورها ؟

— مولاتي الأَميرة ! لقد دخلتِ البيوتَ والأكواخَ جميعَها ، ولم يبقَ سوى كوخِ الحطّاب « سلمان » ، وهو بعيدٌ جدّاً عن هذا المكان . وأنا أَخشى على مولاتي أنْ تنزعجَ إنْ هي دخلَتْه : فهو ليس كوخاً بالمعنى الصحيح ، ولكنَّه مغارةٌ مظلمة . ولولا إلحاحُ مولاتي عليَّ بوجوبِ إحصاء كلّ

مَسْكنٍ في هذه البلادِ لما عَرَفْتُ بوجود هـذا الكوخ .

ولمّا سمعت « زينة » ما دار من حديث قالت :

ـ إنّ « شفيق » لَعلى صوابٍ يا مولاتي ! لقد زُرْتِ بيوتَ المدينة كلّها ، الغنيَّة منها والفقيرة ، فلم تجدي ضالَّتك ، فكيف تجدينها في مِثْل هذه الزَّريبةِ البشريَّة ؟

... وأشارت « زينة » بيدها بعيداً إلى فَجْوَة في الصَّخر يَخرُجُ منها الدُّخانُ ، هي مسكنُ الحطَّاب « سلمان » .

ولكنّ الأميرة ردّت عليها بإصرار :

ـ سأدخُلُ المغارةَ هذه مهما كلَّفني الأمرُ .

لقد تعوّدتُ زيارةَ الأكواخ ، وشاهدتُ الفقرَ والشّقاء في بيوت أبناءِ رعيّتي . وأُعاهِدُ ربّي أنّني سأهتمُّ بكلّ فرد منهم ، فأُوفّرُ له الطعامَ واللّباس والدواء من أجل حياةٍ أفضلَ . هذا نَذْرٌ سأفي به فورَ زواج « ميمون » واطمئنانِ بالي .

ورَفعتِ الأَميرة ثوبَها بيدَيها وسارت ناحيةَ المغارة . كانت الطريقُ ضيّقةً تملأُها الصخورُ والحُفَرُ ، فكادت الأَميرة تتعثَّرُ غيرَ مرّةٍ ، ولكنّها تقدّمت من غير تردُّد . أمّا « زينة » فتبعَتْها عابسةً مقطّبة .

★

كان باب المغارة مفتوحاً ، فطرقَتْه الأَميرة طَرْقاً خفيفاً ، ثم دخلت . في زاويةٍ من المغارة ، قُرْبَ نافذةٍ صغيرة يدخل منها النُّورُ ، جلست فتاةٌ

في السادسة عَشْرَةَ من عمرها تَرْفو ثوباً بالياً . لم
تشعُر بادئ الأمرِ بدخول الأَميرةِ ومُرافِقَيها
لانهماكها في العمل ، لذلك فُوجئت واضطربت لمّا
رأتهم مُنتصبين أمامَها . قالت لها الأَميرة مُلاطِفةً :

ـــ ألسَّلامُ على فتاتي الصغيرة .

فتوقَّفت الفتاة عن العمل ، وقامت واقفةً ، فردَّت
على السلام باسْتِحْياء :

ـــ ألسَّلامُ على سيِّدتي ...

ـــ لقد تِهتُ عن الطريق مع مرافقيَّ هذين ،
فدخلنا بيتَك علَّنا نجدُ فيه مَن يُرشِدنا إلى طريق
المدينة .

ورفعت الفتاة وجهها الى الأَميرة تنظر إليها
بإعجاب ؛ فهي لم تُشاهِد قَطُّ سيِّدةً بجمالها وغِناها .
وحينما وقعت عينا الأَميرة على الفتاة قالت في نفسها :

« يا الله ما أجملَها ! » .

وحارت الفتاةُ في أمرها : أين تجلِسُ السيِّدةَ
الجليلة ؟ لم يكن في الكوخ مكانٌ للجلوس
سوى حصيرٍ بالٍ في إحدى الزَّوايا . ولكنْ
أيليقُ بسيِّدة في مِثْل مَكانتِها أن تَجلِس على
الحصير ؟ وتمتمت الفتاة بخَجَل :

ـــ سيِّدتي ، أرجو معذرَتَك ! لا مكانَ لدينا
تَجلِسين عليه سوى هذا الحصيرِ البالي !

ـــ لا عليكِ يا فتاتي ! لا وقتَ لدينا نَقضيه
في الجلوس . هَلْ لكِ أن تَخرجي معنا وتُرشدينا
إلى طريق المدينة ؟

وكانت غايةُ الأميرة من هذه الدعوةِ أن ترى
وجهَ الفتاة في نور النهار ، إذ كان ظلام المغارة

يمنعُها من تَفَحُّصِ شكلِها بوضوح .

وما إن أصبح الجميع خارجَ الكوخ حتى شهقت الأميرة إعجاباً بما رأته من جمال الفتاة . وفجأةً شعَّ ضوءٌ يَبْهَرُ الأَنظارَ أضاءَ المكانَ بنورٍ وهّاج . وصاحت الأميرة بصوتٍ عالٍ :

— إلهي ! لقد تمّت المعجزة !.. فسُبْحانَ الخالق العظيم !..

ونظرت الأَميرة إلى عُلبة الأحجار ، فإذا بالأَحجار العاديّة قد تحوّلت إلى أربعِ لآلىءَ مُنيرةٍ ملأَت المكانَ بأَشعّتها الساطعة .

وبحركةٍ سريعة أخفَت الأَميرة العلبة في صدرها . ثم تقدّمت من الفتاة وضمّتها إليها ، وراحت تقبّلُها وهي تبكي .

وازدادت حَيرةُ الفتاة المسكينة : ماذا جرى

للسيّدة ؟ لماذا تعانقها بهذه الحرارة ؟ لماذا تبكي ؟

أمّا « زينة » فوقفت كالمصعوقة وقد ارْبَدَّ وجهُها ، فازدادت سَواداً على سواد . وراحت تحدّق إلى الفتاة حيناً ، وإلى الأَميرة حيناً ، وفهمت للحال أنّ هذه الفقيرةَ ، ابنةَ المغارة ، هي مُنافِسَتُها الحقيقيّة على « ميمون » .

وبإرادةٍ خارقة كتمت غَيْظَها ، وتقدّمت من الفتاة وقبّلت يدَيها . وفَعل « شفيق » مِثلَ فِعْلِها . وما كان ذلك إلاّ لَيزيدَ الفتاةَ ذهولاً واضطراباً ...

وفجأةً ترامى إلى المكان صدى صياحٍ بعيد ، فابتسمت الفتاة وزاد وجهها إشراقاً على إشراق . إلتفتت إلى الأَميرة وقالت :

— إنّه والدي يعودُ من عمله ... وهو يناديني

لأُساعدَه في حَمل عُدَّتِه الثَّقيلة . هلاَّ سَمَحْتِ لي بالذهاب إليه ؟

— سيذهب « شفيق » لملاقاتـــه ... لا بأسَ عليكِ يا فتاتي... ولكنْ قولي لي : ما اسمُكِ ؟

— إسمي « ليلى » .

وراحت الأميرة تُحادثها مستفسرةً عن أحوالها، فعلِمت أنّها يتيمةُ الأمّ، لا إخوةَ لها ولا أَخوات، تعيشُ في هذا الكوخِ بصُحْبَة والدِها الذي يعمل حطّاباً في الغابات المترامية .

وَصل الحطّابُ تعِباً والعَرَقُ يتصبَّبُ من جسده، فصاح بصوتٍ طافحٍ بالمحبّة والعِتاب :

— أين أنت يا كَسْلانة ! لماذا لم تذهبي لملاقاتي كعادتك ؟ ألستِ مشتاقةً إلى والدك ؟

وانقطع كلامُه حين وقعت عيناه على الزائرين .
وبادَرتْه الأميرة قائلة :

— السَّلام عليك يا سيِّدي !.. إنّ لك ابنـــةً رائعةَ الجمال والأدب . فهنيئاً لك بها .

— أجلْ يا سيِّدتي . إنّ « ليلى » جميلة ومُحبّة . هي عَوني وأملي في الحياة . تقوم بالطبخ والغَسْل ورَفْوِ الثياب . وساعةَ أعودُ مساءً تَغسِلُ رِجليَّ المتعبَتين وتَنْزعُ عنهما الأشواكَ العالقةَ بهما .

— إنّ فتاةً كهذه تستحقُّ حياةً غيرَ هذه الحياة الشاقّة . دعْها تأتي إلى المدينة لتعيش معي ومع فتاتي هذه ...

وأشارت بيدها إلى « زينة » . ولكنّ « سلمان » أجاب معترضاً :

ــ إنّك تطلبين المستحيلَ يا سيّدتي ! فمَن يُعينني ويقوم بخدمتي ؟ لا ! لا أتخلّى عنها !

وهنا لم تجد الأميرة بُدّاً من إظهار حقيقة أمرِها . خافت ، إنْ هي أخفَت هويّتها ، أن تَضيع عليها الفرصةُ التي طالما بحثت عنها . فنزعت قفّازيها من كفّيها ، ثم أخرجت خاتمَ السّلطنة من أحد أصابعها وقرّبَته من وجه « سلمان » ، وأفهمَته أنّها الأميرةُ زوجُ السلطان .

عند ذاك خرّ « سلمان » على رِجليها خائفاً مرتعداً . ولكنّها هدّأت من روْعه قائلة :

ــ قِفْ يا « سلمان » ، لا أُريد لك ولابنتك سوى الخير ! إنّ لي ولداً وحيداً أسعى في تزويجه ، وكلُّ مُناي أن أتّخذَ ابنتَك « ليلى » زوجاً له . فما تَقولُ ؟

... وكاد « سلمان » وابنتُه أن يَفقِدا الصوابَ !

« ليلى » ، « ليلى » ابنة الحطّاب ، تكون للأمير ، ابنِ السلطان ، زوجاً ؟

وجمعَ « سلمان » أنفاسَه ، وضمَّ إليه بقايا شجاعته وجرأته ، وقال للأميرة :

ــ مولاتي ! شَرَفٌ عظيمٌ لي أن تكون ابنتي زوجاً للأمير . ولكنّها فتاةٌ بائسةٌ مغمورة لا تَعرف من أُمور دنياها سوى أبيها وهذا الكوخ . فأَين لها أن تعيش في القصور وتُحسِنَ معاشرةَ الملوك والأمراء ؟

ــ لقد اختار اللهُ ابنتَك لتكونَ زوجاً لابني ، فلا مَردَّ لإرادته ! ثِقْ يا « سلمان » بما أقولُ ، وكُن مطمئنّاً .

فما كان من « سلمان » إلاّ أن قال

مُذعِناً لمشيئة الأقدار :

ـ هذه ابنتي وحياتي أُقدِّمها زوجاً لابنك، تحقيقاً لإرادةِ الله ورغبةً في خدمة مَولانا . . . إسهري عليها يا مولاتي ، فأنا لا أملِك سواها ! . .

ـ لا تخَفْ يا « سلمان » ! ستكون « ليلى » ابنتي ، وزوجَ ابني ، وأميرةَ البلاد من بعدُ .

★

قعَدَ الجميع على حِجارةٍ مَرصُوصَةٍ قُربَ مَدْخلِ الكوخ ، في انتظار عَودةِ « شفيق » ؛ فقد أنْفذَتْه الأميرةُ إلى القصر ليَحمل إلى « ليلى » الثيابَ الأميريّة ، وليُحضر العَرَبَةَ الملكيّة .

وما إن عاد « شفيق » حتى قامت الأميرة إلى

« ليلى » فألبَستْها ثياب الأميرات ، وسرَّحت لها شعرَها ، وعَقَصَت بعضَ خُصَلِه وزيَّنَتْها بالجواهر . ولمّا شاهدها والدُها في حُلّتها الجديدة لم يُصدِّق عينَيه ، فما تمالَكَ أن بكى من فَرْط فرحه وحزنه : أمّا فرحُه فلِلانتقال وحيدته إلى حياة الدَّعة والاستقرار ، وأمّا الحزنُ فعلى فِراقِها ووَحْدَتِه بعدَها . وحينَ رأت « ليلى » حالَ أبيها ارتمتْ على صدره تودِّعه باكيةً وتَعِدُه بأنّها لن تنساه . ثم التفتتْ إلى الأميرة وفي عينَيها توسُّلٌ وسؤال ، فأدركتْ الأَميرةُ ما يَجولُ في خاطرِها ، فقالت :

ـ أجل يا « سلمان » . إنّ « ليلى » لن تنساك ، ولن ننساك نحن . وإنّك لاحِقٌ بنا بعد مُدّةٍ وجيزة إلى القصر حيث تَنْعَمُ بقرب مَن تُحِبُّ ونُحِبُّ .

ثم رَبَّتَتْ كتفَ « ليلى » بِحنان الأمّ وعَطْفِ السَّيِّدة الأَميرةِ الحاميه .

وما هي إلاّ دقائقُ حتى تحرّكت العربــة إلى القصر يقودها « شفيق » ، وقد جلست فيها الأَميرةُ و « ليلى » جَنبـــاً إلى جنب ، وجلست « زينة » قُبالَتَها . وفيما راحت الخيلُ المطَهَّمةُ تتهادى بالعربة على الطُّرُقات الملتوية سبحت الأَميرة في بَحرٍ من الأَفكار : أحقًّا وصلت إلى غايتها ؟ أحقًّا وجدت عروس وحيدها ؟ إنّها لم تُخبر أحداً بأمر المعجزة ، فالسرُّ ما يزالُ دَفيناً في قلبهـــا ، وهي تكاد تنوءُ بحَمله . متى تُحِلُّها العجوز من وعدها فتُشارِكَ السرَّ زوجَها ، وابنَهـــا ، و « ليلى » ، وحتى « زينة » ؟ لا بُدَّ لها من أن تَقصَّ على الدُّنيا تفاصيلَ الأعجوبة ! وشدَّت العلبةَ السحريّة إلى صدرها

كمَن يَخشى فُقدانَ كَنْزٍ ثمين . ونظرت إلى « ليلى » كأنّها لا تصدّق أنّها معها ، والتمعت عيناها بدمعتين ، وارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ .

أمّا « زينــة » فكانت تَختلِسُ إلى « ليلى » النَّظراتِ فلا تزدادُ إلاّ إعجاباً بجمالها : « يا لَلَونِها الوَرْديّ ! يا لعَينيها الساحرتـــين ! يا لَفَمِها الصغير الأحمر ! يا لَشَعرها الفاحم الذي يَنسدل على كتفيها كالحرير ! » ولكنْ ما بالُها تتغنّى بجمال « ليلى » ، وهي عدوَّتُها اللَّدُود ؟! لا بُدَّ لها من حِيلة تُخلِّصُها منها ! إنّ « ميمون » لها وَحْدَهـــا دونَ سواها ، فكيف لهذه الغريبةِ أن تنتزعه منها ؟ هو حلمُها وأملها منذ الطفولةِ ، قاسَمَتْه الأفراحَ والأحزان ، وشاطَرتْه اللّهوَ واللّعِب ! واللهِ لئن حاولَ أحدٌ التّفريقَ بينهما لتُهلِكَنّه شرَّ هَلاك !

... و « ليلى » ؟ « ليلى » كانت في عالَمٍ جديد
مسحور ، ثيابُه حريرٌ وأرجوان ، وزينتُه جواهرُ
وتيجان ، والحبيبُ الموعودُ فيه أميرٌ ابنُ سلطان !
تُرى ، كيف يكون عروسُها ؟ لولا الحياءُ لسألتْ
أمَّه عنه . هل يرضى بها زوجاً وقد رضيَتْ بها أُمُّه ،
أمْ تُراه يتنكَّرُ لهذا الاختيارِ ، فيرْفضُ الزواجَ
« بليلى » ، فتقعُ المصيبةُ ، وترجعُ إلى كوخها ، إلى
مَغارتها ، محطَّمةَ القلبِ ، مكسورةَ الخاطرِ ، باكيةَ
الأحلام ؟.. لا ! لا ! ستكونُ الأميرةَ « ليلى » ،
زوجَ الأميرِ « ميمون » !

وبعدما طردَتْ عنها أفكارَها السُّودَ أجالتِ
الطَّرْفَ في مَن معها ... ولمّا وَقَعَ نظرُها على
« زينة » رأتها تحدِّقُ إليها بحقدٍ وكَراهِية ، فخافت ...
خافت من العالَمِ المجهولِ الذي تُقبِلُ عليه ، خافت من

الناس الجُدُد الذين يحيطون بها ... وكأنَّها في هذه
اللَّحظةِ قد حنَّت إلى حياتها الماضية ، حياةِ « ليلى »
الفقيرةِ ابنةِ الحطّاب « سلمان » ، حياةِ الكوخ الوَضيعِ
الآمنِ في التِّلال ، بين أحضانِ الطبيعة ، فسالت
من عينَيها دمعتان هادئتان صامتتان ... ورأتها
الأميرةُ فأدركت للحال سرَّ انقباضِها ، وفهمت ما
يَعتمِلُ في نفسها ، فأمسكت بيدها تَضغطُها برِفقٍ ،
ثم ضمَّتْها إلى صدرها ، وهمستْ في أُذُنها :

— لا تخافي يا ابنتي !.. لا تخافي !.. فأنا دائماً
بجانبك !..

٥

نَزَلت « ليلى » في قصرٍ يُواجهُ قصرَ السلطان .
واختارت الأميرةُ الأمُّ أحسنَ وصيفاتها ليَقُمْنَ بخدمة
« ليلى » ، كما استدْعَت أكبر المعلِّمين والمربِّين

فأقاموا يعلّمونها القراءة والكتابة والعلوم، ويدرّبونها على آداب السّلوك. وكانت «ليلى» فائقةَ الذّكاء بالِغةَ الاجتهاد، فأتقنت علومَها بسرعة. وكلّما زارتها الأميرةُ زادت إعجاباً بها وحبّاً لها.

أمّا الأميرُ «ميمون» فكان يَسمَعُ بأخبار عروسه، ويُحيطُ بوَصْف جمالِها الخارق، ولكنّه لم يرَها. كان يَتُوق إلى رؤية «ليلى»، ولكنّ التّقاليدَ كانت تَمنَعُ أن يرى الشابُّ عروسَه قبل عَقْد الزواج... لذلك كان يكتفي بأن يسأل والدته عنها، فتَصِفُها له، فيقضي الساعاتِ يُصغي إليها تحدّثه عن جمال «ليلى»، وأخلاقِها، وتهذيبها.

وبات «ميمون» لا يُطيقُ على هذه الحالة صبراً، فطالب والدته بالإسراع في إتمام الزواج. ولكنّ الأميرةَ كانت تستمْهله، رَغبةً منها في أن

تَكتَمِلَ «ليلى» ثقافةً وعِلماً وأدباً حتى يتسنّى لها دخولُ حياته يوماً كأميرةٍ أصيلة.

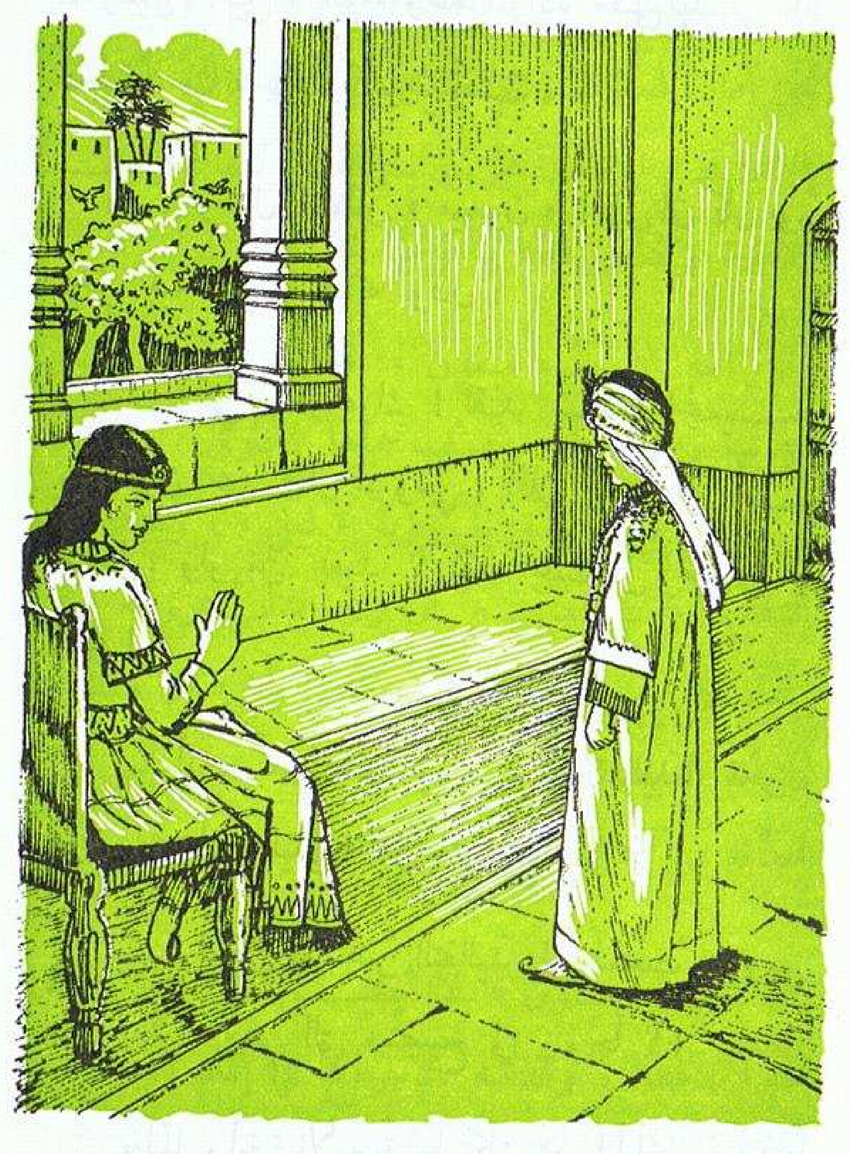
... وطالَ انتظارُ «ميمون»! إلى أن كان يومٌ دخل فيه على والدته وقال:

ــ أُمّي، أرجوكِ! لقد سمعتُ الجميعَ يتحدّثون عن جمال عروسي؛ أفلا يَحِقُّ لي أن أراها، ولو من بعيد؟ لقد عِيلَ صبري يا أُمّاه!

ــ أنت تعلَمُ يا «ميمون» أنّ تقاليدَنا تَحُولُ دونَ رؤيتِك «ليلى» قبل الزواج...

ــ ولكنْ ما ضَرَّ التقاليدَ لو لَمَحْتُ عروسي من بُعدٍ، وهي التي ستُصبحُ لي زوجاً؟!

ولمّا رأت الأميرة ما كان من إلحاح وحيدها



« ميمون » وأمّه يتباحثان في أمر « ليلى »

وافقت على طلبه ... إتّفقا على أن تَخرجَ « ليلى » في نُزهةٍ إلى غابة جميلة يجري فيها النهرُ ، ومعها الأميرةُ الأمّ وفريقٌ من الوصيفات ؛ وقُبَيلَ العَصْرِ تَطلُبُ الأَميرة من « ليلى » أن تَملأَ لها الجرَّةَ من ماء النهر ، فيراقبُ « ميمون » عروسَه من وراء شجرة على الضِّفّة الثانية ، فيراها ولا تراه ، ويتعرَّف إليها من وِشاحٍ لأُمِّه تغطّي به « ليلى » رأسَها في تلك اللّحظة ...

وفيما كان « ميمون » وأُمُّه يَرسُمان هذه الخُطَّة كانت « زينة » تَستَرِقُ إليهما السَّمْعَ ، فعرفت بأمر النُّزهةِ والنَّهرِ والوشاح . وقرَّ رأيُهـا على أن تَنتَهِزَ الفرصةَ بحيلةٍ من حِيَلها لتُبعدَ « ميمون » عن « ليلى » إلى الأَبَد .



في اليوم التالي خرجت الأمـيرة و « ليلى » ،

تُرافقُهما « زينة » والوصيفاتُ ، لقضاءِ يومٍ في الغابة قرب النهر ، كما جرى الاتّفاقُ بين « ميمون» وأمّه . كانت «ليلى » سعيدةً بما ترى ، سعيدةً بمن حولَها . حتى « زينة » سَعَتْ إليها وبذَلت لها صداقتَها .

ولمّا كاد النهارُ أن يَنقضيَ ، وحانَ أن تُنَفَّذ الخطّةُ المرسومة ، طلبت الأَميرة ماءً لتَشرب ، فقُدِّم لها إبريق . وما إن تناولت منه جُرْعةً حتى أبعدته عن شفتَيها وقالت :

— إنّ الماءَ لَساخنٌ ! كم أرغَبُ في شربةٍ من ماء النهر !

وللحال تقدّمت منها « ليلى » فعرضَت عليها أن تأتيَها بالماء من النهر ، ولكنّ الأَميرة تَظاهرت بعَدَم القَبول مدّعيةً أنّ هذا العَمَلَ تقومُ به الوصيفاتُ لا

عروس الأَمير . ولكنَّ « ليلى » أصرَّت على أن تذهب بنفسها خدمةً للأَميرة واحتراماً لها ، فقبلت الأَميرة والسرورُ يملأُ قلبَها لنجاح خطّتها . ونزَعت عن رأسها وشاحَها الجميل المزَخْرفَ وأعطَتْه « لليلى » قائلة :

— ضَعيه يا ابنتي على رأسك ليَقِيَك حرارةَ الشمس وأَعْيُنَ المتنزّهين ! وهاكِ الجرَّةَ الصغيرة فاملئيها . وأنا هنا بانتظارك .

لَفَّت « ليلى » شَعرها بالوشاح ، وحملت الجرَّة ، وسارت إلى النهر . وكانت « زينة » تراقبُها بَعيداً عن الجماعة ، فلمّا رأتها تختفي بين الأشجار لِحقت بها صائحة :

— مولاتي ! مولاتي!

والتفتَت « ليلى » فرأت « زينة» تُقبِلُ عليها

راكضةً . وما إن وصلت إليها حتى بادرَتْها « زينة » بقولها :

ــ دَعيني أحمل عنك الماءَ من النهر . أرجوكِ ! فأنا أخافُ عليك حرارةَ الشمس وأَعْيُنَ الرُّقباء .

ــ لا بأسَ يا « زينة » . هذا العملُ يُسعدُني ، فأنا قد عَرَفْتُ حرارةَ الشمس . عليَّ أن أسرع بالماء لأنّ سيِّدتي الأميرةَ في شوقٍ إليه ورَغبةٍ فيه .

ــ هاتي عنك الجرَّةَ ، أرجوكِ ! سأصلُ إلى النهر بسرعة وأعود إليك ، فأُعطيك المـــاءَ لتُقدِّميه بنفسك إلى الأميرة . إنّ قيامي بهذه الخِدمةِ البسيطة هو تعبيرٌ عن إخلاصي لك وندمي على ما أبديته نحوكِ من فُتورٍ وجَفاء . لا تخيِّبي رجائي !

ولمست «ليلى» في كلام « زينة» نَدَماً واعتذاراً ،

فلم تشأ أن تَصُدَّها ، فأعطتها الجرَّة مكرَهَـــة .

وعادت « زينة » تقول :

ــ مولاتي ! هـــل لي بوشاحك أضعه على رأسي ؟

أعطتها « ليلى » الوشاح الذي على رأسها ، فلفّت به « زينة » رأسَها وقِسماً من وجههـــا . ثم ركضت بين الأشجار واختفت .

جلست « ليلى » في ظِل شجرةٍ تنتظر ، وراحت تتساءل عن سرِّ هذا التحوُّلِ في تصرُّف « زينة » . غيرَ أنّها كانت ، على الرُّغم من حيرتهـــا ، سعيدةً بهذا التحوّل مطمئنَّةً إليه ، لأنّها كانت تحبُّ الجميع ، ولم يَدُرْ في خاطرها لحظةً أنّ « زينة » تخدعهـــا وتُريد بها مَكْراً وشرّاً .

أمّا « زينة » فقد أسرعت في سيرها حتى بلغت النهر . حدّقت جيّداً إلى الضفّة الأُخرى فلمحت بين الأَشجار شبحَ « ميمون » ، وكان ينتظر اللّحظــة السانحة لمشاهدة « ليلى » حسْبَ الخطّة المرسومة .
وما كان من « زينة » إلاّ أن أحْكَمَتْ لفّ رأسِها بالوشاح ، كما لفّت به جُزءاً من وجهها وتركت قِسْماً منه ظاهراً ليرى « ميمون » لونَه الأَسود ، فيتوهَّمُ أنّ عروسَه ـــ وكان يَعتقد أنّ « ليلى » هي القـادمةُ إلى النهر ـــ سوداءُ البَشَرة !

مدّت « زينة » إلى النهر يدَها المكشوفة ، فرأى « ميمون » عجَباً ! ثم رفعت وجههـــا إلى السماء متعمّدةً إبرازَ ما بَدا منه ، فرأى « ميمون » عجباً على عجب ! يا الله ! يدُ « ليـلى » سوداءُ ، ووجهُها أسود ؟! وبَلَغَ من شدّة المفاجأة ووَقْعِ الصّدْمةِ

أن سَقَطَ أرضاً مَغْشِيًّا عليه !

ولمّا رأت « زينة » ما قد حَلَّ « بميمون » ضحكت بأعلى صوتِها تَشَفِّياً وانتقاماً ، واطمأنّت إلى أنّ ما رَسَمَتْه من حِيلةٍ قد تحقّق . ثم ملأت الجرّةَ على عَجَلَةٍ وأسرعت عائدةً إلى « ليلى » .

أخذت « ليلى » من « زينــة » الوشاحَ والجرّةَ وانطلقت إلى حيث كانت الأَميرة بانتظارها ، فقدّمت لها الماءَ العَذْبَ البارد . ولمّا شربت الأَميرةُ وأَرْوَتْ غَليلَها شعرت بسَيلٍ من السعادة يتدفّق في قلبها ، لا لأنّها نَعِمَتْ بالمــاء النّمير ، بل لأَنّها آمنت بأنّ « ليلى » قد ذهبت إلى النهر ، وبأنّ ابنَها قد شاهد عروسه فأَرْوى ، هو الآخر ، غليلَه ، لا من مــاءِ النهرِ ، بل من النّظَر إلى جمال « ليلى » !

★

غابت الشمسُ ، فأقفلت الأَميرة و « ليـــلى » والوصيفاتُ عائداتٍ إلى المدينـة . وكانت الأَميرة تتوقّعُ أن يكونَ « ميمون » قد سبَقَها في العَودة ، لكنّها لم تَرَه . وحلَّ الظلامُ ، ولم يعد « ميمون » إلى القصر . ومرَّت من الليل ساعاتٌ طِوالٌ و « ميمون » غائب . تُرى ، ماذا جرى له ؟ وأقنعت الأَميرة نفسَها بأنّ ابنَها رُبَّما انطلق مع أَصدقائه في رحلة صَيدٍ ، أو نزهةٍ ليليَّة ، بعد ما شاهدَ « ليلى » وهـــدأ اضطرابُ نفسِه . وأَوَتْ إلى فراشها ، غيرَ أنَّ القلق كان يُؤرِّقُها .

ولمّا أطـــلَّ فجرُ اليومِ التالي هبَّت من فراشها تسألُ عن « ميمون » ، ففوجئت بأنّه لم يرجع إلى القصر .

واضطرب السلطانُ وزوجه ، وأرسلا الرُّسُلَ

يبحثون عن « ميمون » في أرجاء المدينة ، ولكن من غير جَدْوَى . وعرفَت « ليلى » باختفاء الأمير ساعةَ أتَتْها « زينة » تقول :

ـــ مولاتي « ليلى » ! أودُّ أن أُطلعك على أمرٍ ، ولكنّني أخشى عليك من الصَّدمة !

ـــ وما الخبرُ يا « زينة » ؟ أَخبريني ، عَجِّلي ، ولا تَقتُليني بالحَيرة والانتظار .

ـــ لقد اختفى الأمير « ميمون » .

ـــ ماذا تقولين ؟! الأَميرُ اختفى ؟! هل أصابه مكروه ؟! يا إلهي !

ـــ خَفِّفي عنـــك يا مولاتي ! ليس في الأمر مكروه ...

ـــ أَصْدِقيني القولَ يا « زينة » !

ـــ يَعِزُّ عليَّ يا مولاتي أن أنقل إليـــك

الحقيقةَ المؤلمة ...

ـ قُولي يا « زينة » ! قولي ولا تُطيلي عذابي !

ـ إنّ الأميرَ يحبُّ فتاةً جميلة تسكُنُ خارجَ المدينة . وهو لا يُريد سواها زوجاً له . ولقد حاول غيرَ مرّةٍ أن يُقنعَ والديه برأيه فلم يُفلح ، لأنّهما مصمّمان على تزويجه بك ! وأمسِ ، حين علِم بأنّ السلطان قد عيّن مَوعِداً لزِفافكما ، عَقَدَ العَزْمَ على الاختفاء ، فغادر القصر إلى جهة مجهولة ...

لم تَقل « ليلى » شيئاً ، كأنّ الخبرَ قد عقَلَ لسانَها . ولكنّ عينَيها غامتا بالدموع ! وما كان هذا المَشهَدُ إلاّ ليَزيد « زينة » سروراً وسعادةً بالانتقام ! لقد نجحت أمسِ لمّا ذهبت إلى النهر متظاهرةً بأنّها « ليلى » ، فرأى « ميمون » من أمرها ما رأى ؛ ونجحت اليومَ في اختراع قصّتها ، فقضت على

أحلام « ليلى » وآمالِها !

وطالَ « بليلى » الصَّمتُ ، وطالَ بها البكاءُ الصامت الحزين . وراحت « زينة » تُتابع حيلتَها ، فصاحت « بليلى » :

ـ مولاتي ! أستَحْلِفُك بكلّ عزيزٍ أن لا تَبوحي بما دارَ بيننا ! ولولا حبّي لك لَما أخبرتُك شيئاً ! لو علمت الأميرة بحضوري إليك وإطلاعِك على السرّ لأمرت بطردي من القصر !

ـ لا عليكِ يا « زينة » ! أعِدُك بكِتْمان الأمر ، فلا تخافي . والآن دَعيني وحدي ، أرجوك .

وخرجت « زينة » وهي تكاد ترقُصُ فرَحاً وطَرَباً . أمّا « ليلى » فوقفت على شُرْفَة غُرفتها

تنظر إلى الحديقة الجميلة التي تمتدُّ تحت أنظارِها ، علَّ الرَّياحينَ والوُرودَ المتناثرةَ في أرجائها تُنسِيها بعضَ ما بها . ولكنَّ قلبَها بقي مُغلَقاً منطوياً على الانكسار والألم . لقد أَحبَّت « ميمون » من غير أن تعرفه ، أحبَّت فيه ما سمِعَتْه عن حَميد أخلاقه ، وطِيبِ جوهره ، ورَوْنَق شبابه . أحقٌّ أنه يَهيمُ بغيرها ؟ ولِمَ لا ؟ رُبَّما رفضَ الزواجَ بها لأنَّها فقيرة ، وَضيعةُ الأصل ... ولكنْ ما ذَنْبُها هي ؟ لم تَسْعَ هي إليه ، ولم تَحْتَلْ في الوصول إليه ... كانت قانعةً بحياتها ، راضيةً بعطف أبيها ، فحملَتْها الأميرةُ إلى هذا المكانِ ، ومَنَّتْها الأمانيَّ ... وفجأةً حدَثَ ما حدث ! آهِ ما أشقاها !

ونظرت إلى الحديقة ثانيةً . إنّها حديقة « ميمون » ! هو الذي تعهَّدها بعنايته ! هو الذي نسَّق أزهارها وورودَها ! لقد جرحَ كبرياءها وكسرَ

قلبها من غير ذَنْبٍ اقترَفَته ، فلْتَنْتَقِمْ من رياحينه ، فلْتُحَطِّمْ حديقته !

ونزَلت مسرعةً إلى الحديقة ... وَجدت الباب المؤدّيَ إليها مُوصَداً ، فطرَقته طَرْقاً قويّاً . وأقبل البستانيُّ فرآها من خلال السِّياج ، ووقف مَشدوهاً بجمالها ، ينظر إليها ولا يعلمُ مَن هي ، ومن أين أتت ، ولماذا . ولكنَّها ما لبثت أن صاحت بصوت منفعل :

يا عمّي يا بستاني   افتح لي بابَ البستانِ
لأقطِف ورداً   وأكسِر زهراً
نكاية بابنِ السلطانِ

فتح البستانيُّ البابَ فدخلت إلى الحديقة . وللحال أخذت تدوس الأزهار بقدَميها ، وتكسِرُ الأغصان

يمنةً ويَسْرَةً ، والبستانيُّ واقف كالمعتوه لا يتحرَّكُ ولا يتكلَّم . ورأت وردةً متطاولةَ العُنُقِ ، زاهيةَ الألوان ، تأخُذُ بمجامع القلوب ، فهجمت عليها تريدُ انتزاعَها وتمزيقَها . ولكنَّها ما لبثت أن صرخَت بصوتٍ عالٍ ، وارتدَّت إلى الوراء والدمُ يَسيل من يدَيها : لقد انتقمت الوردةُ منها بشوكها الحادّ .

وفجأةً أقبلَ شابٌّ يسعى إليها والغضبُ يتطايرُ من عينَيه . ولمّا اقترب منها مستطلِعاً الخبرَ توقَّفَ ، وقد أخذ العَجَبُ منه كلَّ مأخذ ! ماذا يرى ؟ فتاة كالبَدْرِ طَلْعَةً وبَهاءً ! ما أجملَها ! ولكنْ ، مَن عساها تكونُ ؟

نَظرت « ليلى » بغضبٍ إلى القادِم وهي تَمُدُّ أمامها أصابعَها الدامية وقد غطَّتها خدوشُ الشَّوك . فنسِيَ الشابُّ للحال ما كان به من غضبٍ وثَورة ،

وأخرج منديلَه الحريريَّ من جَيبه وراح يضمِّد به أصابعَ الفتاة . ولمّا انتهى من عَمَله خاطَبَها بصوتٍ حنونٍ معاتباً :

ـ ما بالك يا فتاتي تُحَطِّمين هذه الرياحينَ والأشجار ؟ ماذا فعلتْ بك هذه الكائناتُ من مكروهٍ حتى تُعامِليها هذه المعاملةَ الظالمة ؟

ـ ومَن أنت أيُّها الشابُّ ، ومن أين لك أن تخاطبَني بلهجة الواعظ المعاتب ؟ أنا حرَّةٌ في ما أفعل ...

وعادت « ليلى » إلى الأزهار تدوسُها ، وإلى الأغصان تكسرها ، والشابُّ بين نَقمةٍ عليها وإعجاب بجمالها ، وهو لا يَملِكُ إلاّ أن يحاولَ تهدئتَها بالكلام :

ـ سيِّدتي ، ماذا بك ؟... لماذا تنتقمين من هذه



« ليلى » و « ميمون » في البستان

النَّباتاتِ البريئة ؟ بربِّكِ كُفِّي عن أذاكِ !...

وضحكت « ليلى » ثائرةً ساخرةً وقالت :

ـ أنا لا أنتقم من الأزهار والأشجار ، ولكنَّ انتقامي من صاحبها !

ـ ولكنْ لماذا يا سيِّدتي ؟ إنّ صاحبَها لا يَعرِفُك ،

وأنتِ لا تعرفينه ، وهو لم يُصِبْكِ بأذى !

ـ أنتَ واهِمٌ يا سيِّدي ... صحيحٌ أنّني لم أرَ صاحبَها ، وصحيحٌ أنّه لم يرَني ، ولكن أعلَمُ أنّ صاحب هذه الحديقةِ هو الأميرُ « ميمون » ، وأنّني عروسُه !.. أجَل ، أنا « ليلى » ، عروسُه ، وقد تركَ قصرَه واختفى وزواجُنا على الأبواب ، لأنّه يحبُّ فتاةً أخرى . فأيّ أذى يُلحقه صاحبُ الحديقة بي أعمقُ من هذا الأذى ؟ وتسألني ، بعدُ ، لماذا أنتقم منه ؟ !

وشهقت « ليلى » بالبكاء ، واختنقت العِباراتُ في صدرها ! أمّا الشابُّ فقد جَمَدَ في مكانه بُرهةً وكأنّه لا يصدّقُ ما يَسمعُ ! ثم وَضع يديه برِفقٍ على كتفَي « ليلى » وقال :

ـ أأنت « ليلى » ؟ أأنت عروسي الجميلةُ الحبيبة ؟

يا إلهي !.. يا إلهي !..

ولمّا سمعت « ليلى » هذا الكلامَ حدّقت بعينَين واسعتَين إلى وجه الشابّ المنتصبِ أمامها ، وقد كَفّت عن البكاء . أحقٌّ أنّه الأميرُ « ميمون » ؟ ونظرت إلى أصابعه لتتأكّد من قوله ، فرأت في إحداها خاتماً يُشبهُ خاتمها تماماً ! لا شكّ ، إذاً ، في أنّ الشابّ هو الأمير « ميمون » ! يا لَلصّدفةِ العجيبة !

ولكنّ أمراً واحداً حيّرَ « ليلى » : ما بالُ « ميمون » يكلّمُها بلهجةِ العاطفة والحنان ، ويدعوها بعروسه الجميلة الحبيبة ؟ ألم يختفِ من القصر هرَباً منها كما أخبرَتْها « زينة » ؟! ما هذه المفاجآتُ التي مرّت بها اليومَ ؟!

وكأنّ « ميمون » شَعَرَ بما يدور في رأس « ليلى » من أسئلة ، فأخبرَها بالخُطّة التي وضعها مع

أمّه لرؤية « ليلى » سرّاً ، وكيف أنّه رأى على النهر فتاةً سوداءَ البَشَرة ظنّها « ليلى » ، وكيف أنّه أُصيبَ بصدمةٍ جعلَتْه يختفي عن الأَنظار في غرفةٍ صغيرة داخلَ الحديقة ، باحثاً بين أزهاره وأشجاره عن عَزاءٍ لقلبه بعد الذي أصابه . ولقد عنّ على باله في تلك اللحظةِ أن يخرُج إلى الحديقة ، فشاهدَ صبيّةً تحطّمُ ما زرعتْ يداه ، فركضَ إليها ثائراً... وكان ما كان من اللّقاء !

وما إن فَرَغ « ميمون » من قصّته حتى تبدّلت ملامحُ « ليلى » ، فحلّ الصّفاءُ على وجهها محلّ الكَمَد ، وكحّلت عينيها وشفتيها وأساريرَها كلّها ابتسامةٌ أحلى من إشراقةِ الشمس وإطلالةِ القمر . وراحت تخبرُه بحيلة « زينة » في الغابة ، وكيف حملت عنها الجرّة بعدما أخذت منها وشاحَها ، وما قالته لها

عن اختفاء « ميمون » وحبّه إحدى الفتيات !..

وبحركةٍ لا شعوريّة ضمّ « ميمون » « ليلى » إلى صدره وطوّقها بذراعيه كأنّه يخاف عليها من الإفلات . وقد ضمّته هي غيرَ مصدّقةٍ أنّ السعادة قد حلّت بعد اليأس ، وأنّ أميرَ الأحلامِ هو الآن بين يديها ، وأنها بين يديه !

وقف البستانيُّ يَنظرُ إلى العروسَين باديَ التعجُّب والفَرَح . ثم هَرْوَلَ إلى القصر يُعلِمُ السلطانَ والأميرةَ بعَودة الأمير « ميمون » ...

★

إجتمع شَمْلُ العائلة . ووَقَفَ الجميعُ على الدّور الذي مَثّلَته « زينة » ، وعرفت الأميرةُ سببَ رفضِها الزواجَ بأفضلِ الشبّان ، وفي طليعتهم القائد

« جوهر » : كان هدفُها أن تتزوّج الأمير « ميمون » . ولكنّ الفرحَ بهذه النّهايةِ السعيدة ذَهَبَ بالأَحقاد ، فصَفَحت « ليلى » عن « زينة » ، وصفح عنها الآخرون. وما كان من الأميرة إلاّ أن أمرت بإحضار « زينة » ، ولكنّ أحداً لم يرَها . وجرى البحثُ عنها في ساحات القصر وحدائقه، وفي أرجاء المدينة ، فلم يُعثر لها على أثر .

وبعد ساعات عاد أحد الرُّسُل ومعه « زينة » ، وهي في حالة يُرثى لها من الاضطراب والتعب والذُّعر ، فأخبر الأميرةَ أنّه وَجدَ « زينة » خارجَ المدينة ، وقد خارت قواها بعد ما ركضت مدّةً طويلة هائمة على وجهها .

سألت الأميرة « زينة » عن سبب هربها ، فأخبرتها بالحقيقة وهي ترتجفُ من الخوف : أخبرتها بحيلها

وخُططِها منذ البداية ، وأنها كانت على شرفة غرفتها
لمّا شاهدت الأمير « ميمون » يضمّد الخدوشَ في
يدَي « ليلى » ، فأدركت للحال أنّ لقاءهما أبديٌّ ،
فخافت على نفسها من افتضاح أمرها وهربت .

ثم خرّت على قدمَي الأميرة باكيةً نادمةً
مستغفِرةً . فما كان من الأميرة إلاّ أن أنهضَتْها
برِفق ، وقبّلتها بين عينَيها وقالت لها :

ــ لا عليكِ يا « زينة » . لقد كنت لي الابنةَ
الصالحة ، فآنسْتِ وحدتي قبل أن يرزُقَني الله
« ميمون » ، ورافقتِ حياتي طَوال هذه السنوات ،
فنَعِمْتُ خلالَها نحوكِ بأطيبِ عواطفِ الأمومة ...
وإنّ ما أتيتِه من ذَنْب لم يكن عن شرٍّ وأذى ، بل
عن حُبٍّ حمَلْتِه « لميمون » جعلكِ تُخطئين في
التصرّف . والآن انتهى كلُّ شيء على ما يُرام ،

وأنتِ لي الابنةُ الحبيبة ، و « لميمون » الأختُ
الحنونُ ، و « لليلى » الصديقةُ والرّفيقة ...

٦

طافَ المُنادي العجوز يُعلن في المدينة نبأَ
زواج « ميمون » و « ليلى » ، ويدعو الناس إلى القصر
كما دعاهم منذ ثمانيةَ عشَرَ عاماً يومَ ولادةِ
« ميمون » .

وأقيمت الأفراحُ سبعةَ أيّامٍ بلياليها عاشت
الرعيّةُ خلالَها حُلُماً جميلاً . وأنعم السلطانُ على
أفراد رعيّته بالهدايا الماليّة الثمينة ، ووزّعَ على
الفلاّحين منهم الأراضي السلطانيّةَ ليزرعوها ويستغلّوا
خيراتِها بجهدهم ونشاطهم .

وفي آخرِ ليلة من ليالي الاحتفالاتِ ظهرت

الساحرة العجوز ، وطلبت من الأميرة الأمّ أن تأتيها بعلبة الأحجار التي استحالت مجوهرات ، فامتثلت الأميرة للأمر بسرور . وما إن فتحت الساحرة العلبةَ حتى شعَّ في القاعة الكبيرة ضوء يَخطِف الأبصار . وتناولت الساحرة الأحجارَ الواحدَ تلو الآخر، ثم تمتمت بكلمات مُبهَمة فانتظمت الأحجارُ عِقداً رائعاً طوّقت به عنق « ليلى » وهي تقول :

— إحتفظي بالعقد يا « ليلى » ، فهو حِرزٌ يَقيك الشرَّ مدى الحياة . ويومَ تُرزَقين أولاداً ليَكُن هذا العقدُ هديّتك إلى عَروس ابنِك الأكبر، وليَبْقَ في العائلة أبدَ الدّهر.

قالت الساحرة هذه الكلماتِ واختفت .

وتعجّب الحاضرون ممّا رأوا وسمعوا ، وابتسمت

الأميرة الأمّ بارتياح . وقامت تُخبِرُ الجميعَ بأمر العلبة والأحجار منذ البداية ، فهتفُوا بحياة العروسين. واستمرَّ الاحتفالُ حتى الصّباح .

★

رُزق « ميمون » و« ليلى » البنينَ والبناتِ . وعاشت « زينة » حياةً سعيدة هانئة مع زوجها « جوهر » . وانتقل « سلمان » إلى القصر يعيش في الحاشية . أمّا السلطانُ وزوجه فقد نعِما بالأولاد والأحفاد في شيخوخةٍ راضية صالحة .

الأبواب المسحورة

١

وقَفت الأميرةُ « ياسمين » تَنظرُ إلى شقيقتها الصغرى « سوسن » تغادرُ القصرَ برِفقة كلابِهـا في نُزهتها الصَّباحيَّة المعتـادة . ولمّا غابتْ عن عينيها تنهَّدت من أَعماق قلبها ! حبَّذا لو تمكَّنت من مُرافقةِ شقيقتِها ، وأن تعيشَ حياتَها الطَّليقة الُحرَّة ! كانت « سوسن » تستيقظ مـع الطُّيور ، فتتناولُ فَطوراً خفيفاً ، ثم تَحمِلُ عصا طويلةً وتخرُج إلى الحديقـة أو تنطلِقُ إلى الغاباتِ . إنَّها تعْشَقُ الطبيعةَ ، وتجدُ لذَّةً ما بعدَها لَذَّةٌ في اكتشَاف خفاياها ، ومرافقةِ

حيواناتها ، ومراقبةِ أطيارها ، وملاحقةِ فَراشاتها ، ودِراسةِ حَشَراتها ، وتَعَهُّدِ نباتاتها . وهي تزداد عن حياة التَّرَف بُعْداً كلَّما ازدادت بحياة الطبيعة التِصاقاً .

و « ياسمين » ؟ ياسمين تحبُّ الطبيعة ، وتعشَقُ فيها ما تعشَقُه شقيقتُها الصُّغرى . ولكنْ أنّى لها أن تعيش مع الطبيعة كما تشتهي ومَهامُّ الحُكْم تنتظرُها وَشيكاً ؟ إنَّها ابنةُ الملك الكُبرى ، ووريثةُ العَرْش بعد وفاته . ولقد تقدَّم والدُها في السنّ ، فأراد ، بثاقِب نَظَره ، أن يهيِّئها لمسؤوليّات المُستقبَل ، ويسلِّحَها بالحكمة لتكونَ لها دِرْعاً تَصونُ بها المُلْكَ وتحفظُه لأولادها من بَعدها . وكانت «ياسمين » في بادىء الأمرِ تَنوءُ بهذه الحياةِ ، ولكنَّ إيمانها بمحبّة والدِها ، وثقتَها بإدارته

الحكيمة ، جَعَلاها ترضى بالمسؤوليّات وتتحمَّلها باقتناع ولَذَّة .

★

مَضَتِ الأيّامُ ، وكَبِرت الشقيقتان ، وكلٌّ منهما تَسيرُ في طريق : « فسوسن » تُعاشِرُ الطبيعةَ ، وتختلِطُ بعامَّة الشعب ، فتعاني مشاكلَهم ومَتاعبَهم ، وتشاركُهم أحلامَهم وأمانيَّهم ، وتنقلُ إلى والدها شَكاواهم وظُلاماتِهم ، فيُبادرُ إلى تحسين أحوال رعيَّته ، و « ياسمين » تعيش حياةَ القصر ، فتستقبلُ رجالَ السياسة ، وتَتدارسُ مع أبيها الرسائلَ والتَّقاريرَ ، وتُبدي الرأيَ في القضايا الاجتماعيّةِ والاقتصاديّة العُليا .

وفي أحد الأيّام تعرَّفتْ « سوسن » إلى شابٍّ مُزارِعٍ يُدعى « سعيد » راحَ يُرافِقُها أحياناً في

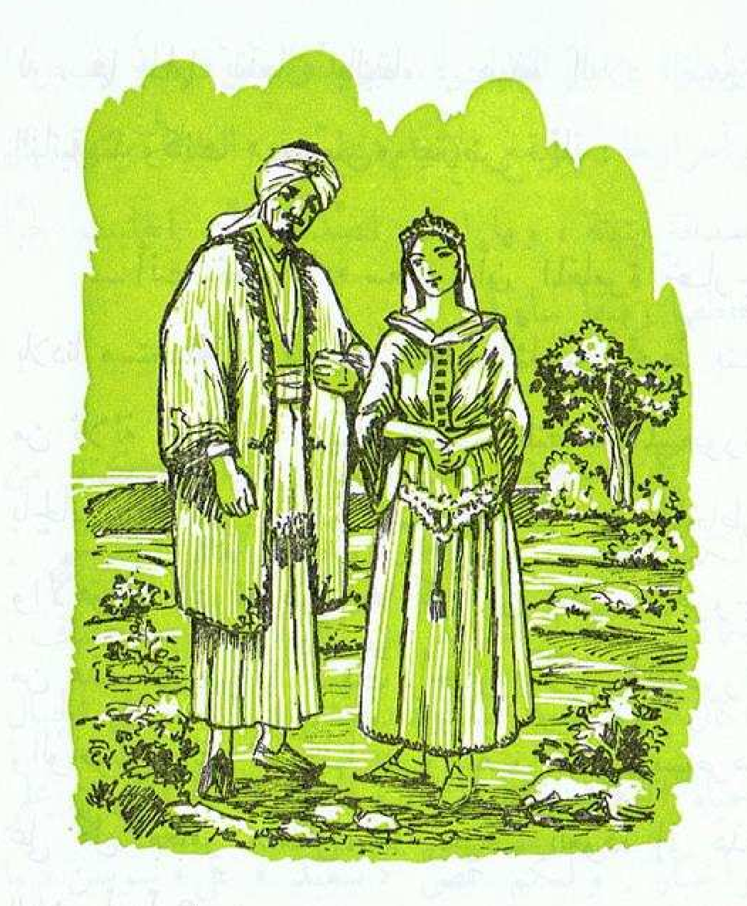
نزهاتِها داخلَ الغاباتِ ، فيزيدُها معرفــةً بسحرِها
وأسرارِها . ومع الأيّام تطوّرت العلاقةُ بينهما إلى
صداقةٍ متينة ، وما لبثت الصّداقةُ أن انقلبت حبًّا
عاطفيًّا رقيقاً سامياً .

كان « سعيد » يحبُّ العِلْمَ ، فقرأ الكثيرَ من
الكتب القديمة ، وعرَفَ بأخبار العالَم الخارجيّ .
وتاقَتْ نَفْسُه إلى مَزيدٍ من المعرفة والاستكشاف ،
فكان يَزورُ شيخاً فيلسوفاً يعيش في أعــالي الجبالِ
حياةَ الزُّهْد والتَّنسُّك ، ويأخذُ عنه ما فاتَه من علمٍ
وأخبار . ولَكَمْ قصَّ « سعيد » على « سوسن » ما
قرأ وما سمِــع ، ولَكَمْ أعادَ عليها أنّ العالَم واسعٌ
مُترامٍ حافلٌ بالأسرار ، وفيه البحــارُ والمراكبُ ،
وفيه العُمرانُ والعجائبُ ، وفيه من البَشَر أجناسٌ
وأجناس ، وفيه من الحيوانات والأسماك ما لا حَصْرَ

له . فما بالهما يَقنَعان بالبقاء في هـذه البلادِ الصغيرة
النائية ؟ وكانت « سوسن » تعترِض قائلة :

ــ أنت تَعلَمُ يا « سعيد » أنّ المغامرةَ خـارجَ
بلادنا مستحيلةٌ : فالجبالُ العاليةُ الثّلجيّةُ تُحيطُ بنا
من ثلاثة جوانبَ ، بينما تَحُفُّ المنطقـةُ المسحورة
بالجانب الرابع . أفلَمْ تسمع الأخبارَ عن المَخاطِر
والأهوالِ التي تعرَّض لها كلُّ مَن حاولَ الخروجَ
من هذه الأرض ؟ أنسيتَ أخبارَ الآبارِ المسحورة
والوحوشِ التي تَسكُنُها ، وكيف تَقضي بسِحرها
على كلِّ مغامرٍ مُتطَفّل، فلا يَعرِفُ العودةَ إلى هذه
البلادِ أبداً ؟

ــ « سوسن » ، حبيبتي ، لا تُصغِي إلى هذه
الأقاويلِ ، ولا تُصدّقي الأساطير . لقد قرأتُ
الشيءَ الكثير ، وأيقنتُ أنّ بإمكاننا مُغادرةَ هذه



« سعيد » و « سوسن » في حديث عن العالم الخارجي

البلادِ من غير أن نتعرَّض للأذى .

ـــ أنت يا « سعيد » شابٌّ طموحٌ مِقدامٌ

سَحَرَتْكَ الأحلامُ وأخذ عليك حبُّ المغامرة تفكيرَك . فكيف تُريدُني أن أصدِّق ما تقولُ وأنسى ما سمعتُه منذ نُعومةِ أظفاري ؟

ـــ دَعيكِ ، « سوسنُ » ، من الحكايات والأساطيرِ ، ولا تُصغي إلاّ إلى برهان العلمِ والعقل . لديَّ من المَعلومات والحقائقِ ما يُفيدُ أنّه يُمكِنُنا الدخولُ إلى المنطقة المسحورة والخروجُ منها . ألا تريدين مُشاهَدةَ البحر الأزرقِ الذي طالَما حدَّثتُك عنه ؟ أفليس بك فُضولٌ إلى زيارة بلادٍ جديدة ، والتعرُّفِ إلى أهلِها وعاداتِها ، والتَّمتُّعِ بمظاهِرِ عُمرانِها ؟..

كانت « سوسن » تَشعُرُ ، في قرارة نَفْسِها ، بما يَشعر به « سعيد » . ولكنَّها كانت أقلَّ منه اندفاعاً وأشدَّ حذَراً . لذلك وقفت حائرةً بين أن تلبِّيَ

نداءَ الحبِّ والخيالِ فتندفعَ معه في مغامراته ، أو
أن تلبّي نداءَ عقلها وولائها لأهلها وبلادِها فتبقى
حيثُ هي .

ولم يكن « سعيد » ليُتيحَ « لسوسن » مجالاً
للاختيار ، فكـــان دائمَ التّكلّمِ على أحلامه
ومَشروعاته ، دائمَ السّعي لإقناعِها بمشاطرتـــه
مغامرتَه ...

*

لاحظت « ياسمين » أنّ تغيُّراً مَلحُوظاً قد طَرأ
على أختهـا « سوسن » : فهي لم تبقَ لها تلك الحيويّةُ
التي تُشعُّ من عينَيها . ولم تكن « ياسمين » تَعلمُ
ما قامَ بين « سوسن » و « سعيد » من علاقات المَودّةِ
الصافية ، ولم تكن بالتالي تُدرِكُ ما يُدبّر « سعيد »
من سَفرٍ ومغامرةٍ ، ولا ما كانت تَخبطُ فيـــه

شقيقتُها من حَيرة . وعبثاً حاولت « ياسمين » معرفةَ
سرِّ « سوسن » ومَصْدر همومِها ، فقد كانت الأختُ
الصُّغرى دائمــةَ الصَّمْت والانطواءِ ، لا تُفصِحُ
بكلمةٍ عمّا بها ...

... إلى أن كان يومٌ تزوّج فيـــه « سعيد »
و « سوسن » ، وعقـدا العَزْمَ على مغادرة البلادِ
استكْشافاً عن المجْهُول . فقامت « سوسن » إلى ثيابها
وحِلاها تَجمَعُ منها خِفْيةً ما تيسّرَ لها منها ، وحملت
شيئاً من المال كانت تَدّخِرُه ، ثم رَكِبت جوادَها
المفضّلَ وذهبتْ إلى الغابة حيثُ كان « سعيد »
يَنتظرُها بفارغِ صَبْر .

٢

وَجّه « سعيد » و« سوسن » مَسيرَهما وُجْهـــةَ

الآبارِ المسحورة ، وهي الناحيةُ الوحيدة التي كانْ
يُمكِنُ للمسافرِ أن يُغادرَ منها البلادَ . ولا تَسلْ
عن المَتاعبِ والمَخاطرِ التي اعترضتْ سبيلَ الرفيقَين
المتحابَّين المغامِرَين ! فقد قضَيا شهراً كاملاً لا
يَنالان فيه من الراحة والنَّوم إلاَّ القليلَ القليلَ ،
وهما في سَعْيٍ دائبٍ لاجْتِياز المَسافاتِ وبُلوغِ نِهايةِ
المَطاف . وكانا في ذلك كلّه يَهْتَدِيان برُسوم
ومُخطَّطاتٍ وَضعها لهما الناسكُ العالِم .

وفي صباح أحدِ الأيَّام ، فيما كانت الشَّمس
تَنْسجُ من خُيوطِها وِشاحاً ذَهبيّاً تَلُفُّ به أكتافَ
الكَوْنِ ، وقفَ « سعيد » و « سوسن » مَشْدوهَين
أمامَ مَنْظرٍ رائعٍ : فقد امتدَّت أنظارُهما إلى ما
وراءَ حُدود بلادِهما ، إلى العالمِ الخارجيِّ الذي طالَما
حَلَما ببلوغِه ، فرأيا من السُّهول والأوديةِ والأنهارِ

والأَشجارِ ما جَعلَ قلبَيهما يَخفُقان طرَباً .

★

مضى على زواج « سعيد » و « سوسن » ثلاثُ
سَنوات جابا فيها أرجاءَ البلادِ الجديدةِ التي حَلاَّ
بها : طافا في المُدُن يُشاهدان مَعاهدَها وهَياكلَها
وقُصورَها ، ويَزوران أسواقَها ومحالَّها التجاريَّة ،
وركبا البحرَ الذي كانا يَسْمَعان بأخبـاره من غير
أن يَريَاه . ولم يَستقرَّ بهما المُقامُ في مكانٍ واحد .
كانت بهما رغبةٌ شديدةٌ في رؤيـة كلِّ جديدٍ ،
والاطِّلاعِ على كلِّ فريدٍ ، لذلك أخذا ينتقلان من
مدينة إلى مدينة ، ومن مَحلَّةٍ إلى محلّة ...

ولكنَّ العالَم واسعٌ كبير ، وإمكاناتُها المادّيّة
محدودة . وبدأت نقودُهما تَنْفَدُ ، فقامت « سوسن »
إلى مُجَوهَراتها الغاليـة تَبيعُها . واستقرّت العائلة

أخيراً في مدينةٍ صغيرةٍ نائية ، بعدَ ما رُزِق الزَّوجانِ بولَدَيهما « هند » و « سعد » .

★

كانَ « سعيد » يَعْمَلُ لَيلَ نهارَ للقيامِ بنفقاتِ المنزلِ الكبيرِ الذي سَكَنَتْه العائلة ، وللقيامِ بنفقاتِ زوجه ووَلدَيه . وفي يومٍ من الأيّام أصابَه مرضٌ عُضالٌ عَجزَ الأطِبّاءُ عن شِفائه ، فمات وهو في رَيْعان شَبابِه .

وَقعتِ الفاجعةُ على « سوسن » المِسكينةِ كالصّاعقةِ ، فساءت حالُها ، وخارت قِواها ، وكادت تَسْتَسْلِمُ إلى اليأس وتتمنّى اللّحاقَ بزوجها الحبيب . ولكنَّ بُكاءَ طِفلَيها المستمرَّ ، وضِيقَ ذاتِ يَدِها ، جَعلاها تتغلّبُ على ضُعفها ، وتَنْهَضُ إلى مُواجهة حياتِها الجديدةِ بعزمٍ وإرادةٍ وتحدٍّ .

فكان أن تخلَّت عن منزلها الكبيرِ ، ذي الإيجارِ المرتفعِ ، واختارت لسُكْنى العائلةِ غُرفةً صغيرةً في حيٍّ شعبيّ . وشَرَعتْ تفكّرُ بعَملٍ تعيشُ منه مع طِفلَيها ، فاهتَدتْ إلى حلٍّ موفّق : فَطِنتْ إلى أنّها تُتْقِنُ فنَّ التّطريز ، فقصدَت إلى بُيوت الأغنياءِ تَعرِضُ عليهم خدماتِها . وأعجبَ الجميعُ بجرأة الأرملةِ الشابّة النشيطة ، فعَهِدوا إليها في تطريزِ ثيابهم ومَفروشاتِهم .

★

إسْتَمرَّت « سوسن » تَعْمَلُ بكدٍّ وعَزْمٍ لا يَعرِفان الفتورَ : في النهار تَقومُ على خِدمة بيتِها ورعايةِ طِفلَيها ، وفي الليل تُطرِّزُ بإبرتها أجمل الثّيابِ وأفخرَ الأقْمِشة . واستمرَّت الأيّامُ تتقدّمُ بالعائلة الصغيرة ، فإذا « هند » فتاةٌ في العاشرة من

العمر ، سوداءُ العينين ، فاحمةُ الشَّعر ، بيضاءُ
البَشَرة ، في وَجْهها بريقٌ يأخذ بمَجامِعِ القلوب ؛
وإذا « سعد » فتى في التاسعة ، ناحِلُ البِنْيَة ،
وَضّاحُ المُحَيّا .

وما كان العَمَلُ الدائبُ النشيط القاسي إلاّ
ليُوهِنَ قوّةَ « سوسن » ويأكُلَ من صِحّتها
وقلبِها . ضَعُفَ جسمُها ، وضاقَ نفسُها ، وحَسُر
بَصَرُها ، فأيقنتْ أنّ حياتَها في خَطَرٍ ، وأنّ أيّامَها
مَعدوداتٌ . وخافت على ولَدَيها من جَوْرِ الزّمانِ
في بلادِ الغُربةِ القاتلة ، فقرّرت أن تعودَ بهما إلى
بلادها ، ولو كلّفتْها مَشقّةُ الانتقالِ حياتَها .

٣

كانت عَوْدَةً بطيئة ، ثقيلةً ، طويلةً ، شاقّة .
مَسافاتٌ شاسعةٌ قطعوها . عَشراتُ المُدُنِ نزَلوها .

كانت « سوسن » تسيرُ بعزمٍ نحو بلادِ أبيها ، ولا
تتوقّفُ إلاّ حينَ يُنهِكُ التّعبُ جسمَها الناحِلَ
ويكادُ يَقضي على ولَدَيها الطّرِيّين ؛ أو حين
تُضطَرُّ إلى العمل لكَسْبِ شيءٍ من المال يُعينُها على
مُتابعة السَّفَر . إلى أن أشرفت على حدود بلادها .

هناك اطمأنَّ قلبُها . ولكنّها آثرتْ أن
تستريحَ قبل اقتحامِها المناطقَ الخطرةَ التي تُحيط
بمملكةِ أبيها ، فنزلت في إحدى المدن الصغيرة
القريبةِ من الحُدود .

كانت تجلِس مع ولَدَيها كلَّ مساء ، فتَقُصُّ
عليهما أخبارَ صِباها وطفولتِها ، وتَصِفُ لهما القصرَ
وحياتَه ، والغابةَ وحيوانَها ، وتُسهِبُ في الحديث
عن كِلابِها ، وحصانِها ، وعن سعادتِها بالقُرْبِ من
شقيقتِها وأبيها . في تلك اللّحظاتِ الخاطفةِ كان بريقُ

الأملِ والرَّجاءِ يَعودُ إلى عينيها المتعبَتين ، والدمُ
إلى خدَّيها الذابلَين ، فتعودُ « سوسن » شابَّةً جميلةً
مرِحةً . ويَنظُرُ الولَدان إلى أُمِّهما وهي على تلك
الحال فيكادان لا يُصدِّقان ما يَريان فيها من تحوُّلٍ .
ولكنْ ، حين تصِلُ « سوسن » بأخبارها إلى موت
زوجها ، يَخبو البريقُ في وجهها ، وتعود إلى حقيقتها
المؤلِمة : تعود عجوزاً أثْقلَتْها الهمومُ ، على الرغم
من شبابها .

وفي إحدى الليالي جلست « سوسن » في فِراشها
وهي ترتعِدُ من الحُمّى . نادت ولدَيها ، ونزَعَتْ من
حول عُنقِها سلسلةً ذهبيَّةً أهداها إيّاها والدُها
يوم بلغت السادسةَ عشْرَةَ من عمرها ، وطلبَ منها
الاحتفاظَ بها مهما يَمُرّ بها من أحوال ، لأنّ
السلسلةَ الهديَّة كانت لأمّها قبلَها . قالت لولدَيها :

ــ أُنْظرا إلى هذه السلسلة ، وإلى الحِلْيَة التي
تتدلَّى في وَسَطها . إنَّها آخِرُ ما لديَّ من مالٍ
ومَتاعٍ في هذه الدُّنيا . لقد قاسَيتُ الكثيرَ من
أجْلِ أن أحْتَفِظَ بها لكما . هذه الحِلْيةُ تعرِّف بكما
وتُثبِتُ نَسَبَكما . حافِظا عليها مُحافَظتَكما على
حياتِكما ، فهي سبيلُكما إلى الراحة والاستقْرار .



« هند » تضع حلية امّها في عنقها

حينما تَصِلان إلى بلادِ أبي اطْلُبا حالاً مقابلته ومقابلة أختي «ياسمين». سيعرفانِكما للحال لِما فيك يا «هند» من شَبَهٍ خارقٍ بأُختي، ولِما فيك يا «سعد» من شَبَه خارق بي.

وتوقّفت «سوسن» عن الكلام. كانت الحُمّى تُطبِقُ شفتيها وتُحاوِل إسكاتهما إلى الأبد. ولكن لا! لا تُريد أن تموتَ الآن! عليها أن تؤدّيَ كامِلَ رسالتِها، أن توصِلَ ولدَيها إلى مرفإ الأمان!

وعادت تُتابِعُ كلامَها بصوتٍ خافِت:

ــ كان حُلمي ومُنتهى مُنايَ أن أعودَ بكما إلى بلادي وبلادِ والدِكما. ولكنَّ الموتَ لن يُمهلَني لمرافقتِكما، فعليكما باستئناف السفرِ ولو وَحيدَين.

ومدت يدَها بالسلسلة إلى «هند» وقالت:

ــ ضَعي يا «هند» هذه السلسلةَ حولَ عنقك، وأخفِي الحليةَ في صدرك...

ثم تناولت كِيساً صغيراً أعطَتْه ابنَها «سعد» قائلة:

ــ وهاكَ يا «سعد» دراهمَ قليلةً ادَّخرْتُها لمِثلِ هذا اليومِ. كُنْ وأختك بها ضَنينَين، فهي لكما سَنَدٌ أيُّ سند في ما أنتما مُقبِلان عليه من تَنَقُّلٍ ومَشقّة.

وبصوت كاد يَموتُ قالت لهما:

ــ غداً صباحاً ادخُلا المنطقةَ المسحورةَ التي طالما كلَّمْتُكما عليها. وبعد هذه المنطقةِ تصلان إلى بلاد الآباءِ والأجداد. ولكنْ، واحَسْرتاه! إنّ هذه

المِنطقةَ المسحورة غَدَّارَةٌ خَدَّاعة حافلة بالمهالك .
فإيَّاكما والوُقوعَ في حَبائِلها ! لا يَبْتَعِدَنَّ أَحدُكما
عن الآخر ولو لحظةً واحـــدة في النهار والليل !
ليكُنْ أكلُكما مُجتمِعَين ، وسَيرُكما مجتمعَين . لا
تأكُلا من تلك الأَرضِ الغَرَّارةِ ثمَراً ، ولا تشربا
منها ماءً ...

ثم شرَعتْ لهما أحوالَ الأرضِ التي سيقطعانها ،
ومخاوفَ الطُّرق التي سيسلُكانهـــا ، وزوَّدَتهما
ببرَكاتِها والدُّموعُ تَسِيلُ صامتةً حزينـــةً على
خدَّيها ...

ثم سادَ الصَّمْتُ ... وحدَّقت إلى ولَدَيها كأنَّها
تُريدُ أن تطبعَ صورتَهما في قلبها ... وأسلمت
الرُّوح .

٤

سار « سعد » و« هند » أيَّاماً وأيَّاماً ... وأخذ
اليأسُ يَدِبُّ في قلبيهما ، والتَّعبُ يأكُـــلُ من
جسدَيهما . ولكنَّ روحَ الوالدةِ وبَرَكاتِها كانت
تحرُسُهما وتُوجِّه خطاهما ...

وأخيراً لاحت لهما أرضُ الآبارِ المسحورة .
صاح « سعد » بأُخته :

ــ أُنظُري يا « هند » ! إنَّها الأَرضُ المسحورة
التي وصَفَتْها لنا أُمُّنا . ها هي تمتدُّ أمامَنا ! علينا
أن نُسرع في دخولِ غابَتِهـــا لنقطعَها قبلَ حلولِ
المساء . قومي بنا يا أُختُ !

ــ كلاَّ يا « سعد » . إنّ النهارَ قد مالَ ، والشمسُ

تتَّجهُ نحو المَغيب . ونحن الآن مُتعَبان . علينا أن نرتاحَ اليومَ ونُجدِّدَ قوانا ، وفَجْرَ غدٍ نُتابِـــعُ المَسير .

... وهكذا كان . نام الأَخوانِ ، ثم نَهَضا مع الفجرِ ، فركَعا أرضاً ، واتَّجها بأبصارِهما إلى السَّماء ، وراحت « هند » تصلِّي وتدعو ، وأخوها يردِّدُ :

« ربِّي كُنْ لنا عَونـــاً في رحلتنا ... سيِّرْ خُطانا في الطريقِ الصَّحيحِ ... إِمْنَحْنا القوَّةَ والصَّبر لِبُلوغِ الهدَف ... ويا روحَ أُمِّنا المِسكينــةِ انظُري إلينا ورافِقينا ... »

ثم انكفأت « هند » إلى « سعد » تُشجِّعُه قائلة :

— لم يبقَ بيننا وبين الوطنِ سوى نهارٍ واحد . لقد انتظَرْنا هذا اليومَ بفارِغ الصَّبرِ ، وعمِلْنا له

بكلِّ ما أُوتينا من نشاطٍ ، فنحن موفَّقان إلى بُلوغ بلادِنا وأهلِنا بإذن الله .

تَقاسَمَ « سعد » و« هند » مـــا كان معهما من طعامٍ وماء ، وسارا مسرعَين .

كانت المنطقةُ رائعةَ الجمالِ ، بأشجارهـــا ، وأَطيارِهـــا ، وينابيعِها ، وغِيطانِها . وكان كلُّ مَشْهَد فيها يدعو المسافرَين الصَّغيرَين إلى التوقُّف والتمتُّع . ولكنَّ صوتاً خَفِيّاً كان يَأمرُهما في أعماقِهما : « إيَّاكُما والوقوفَ ! إيّاكما والوقوف ! »

وهكذا مَشَيا مسافةً طويلةً ، إلى أن اشتدَّت الشَّمسُ لَهيباً ، فدَبَّ الوَهَن في أرْجلهما ، وأخذَ العَرَقُ يتصبَّبُ من جِسْمَيهما . ولكنَّ الصوتَ الحنونَ ،صوتَ الوالدةِ المنبعثَ من وراءِ المَجهولِ ، كان يتردَّدُ في قلبَيهما : « هيّا ! هيّا ! لقد اقترَبْتُما

من بلادي ! » ، فتعودُ إليهما الحميَّةُ ، ويَعودان إلى
السَّير ، ولكنَّهما ، من فَرْط التعب ، يَجُرَّان الخُطى
جَرًّا . واقترحت « هند » أن يُخفِّفا من أحمالهما ،
فرمَيا المُؤنَ ، وأبْقَيا على الماء القليل الذي كان
لدَيهما .

ولكنَّ الحرَّ الشديد ، والسَّيرَ المتواصِلَ ،
ذهبا شيئاً فشيئاً بالبَقيَّة الباقيةِ من مائهما . وما لبِث
العَطشُ أن أضرَّ بهما ، فتهادَى « سعد » كالسَّكرانِ ،
ولكنَّ أُختَه أسْعفَتْه على الرغم مِمّا بها من
ضعفٍ . وبعد خُطواتٍ قليلةٍ توقَّفَ « سعد » مكانَه
من غيرِ حَراك ، وراح يردِّد : « عطشان !.. أنا
عطشان !.. »

وأدركت « هند » أنّ مُحاولَتَها تشجيعَه أو
تحريكَه لن تنجحَ ، فقد كان منهُوكَ القوى ، خائرَ

العزيمة . وفجأة سمعا خريرَ ماءٍ راحَ يَقوى
ويقوى إلى أن طغى على كلِّ صوتٍ آخرَ في
الغابة .

راحت « هند » تُسائلُ نفسَها : « ماذا لو
أنقذتُ حياةَ أخي بجرعةٍ من هذا الماء ؟ أخي
ميِّتٌ لا مَحالةَ إنْ هو لم يَشْرَبْ ! » وتقدَّمت من
بئرٍ قريبةٍ كانت مياهُها تَهْدِرُ في داخلها ، وأدْلَت
فيها بقِرْبَةٍ لتملأَها ماءً . وللحالِ علا في الغابة
صوتٌ مُدَوٍّ يقول :

ـ مَن شرب من مائي أصبح ذئباً كاسراً !

فارتدَّت « هند » إلى الوراء مذعورةً وهي
ترتَعِد : « سعد » ، الولدُ البريء الصغير ، ذئبٌ
كاسر ؟ لا ! لا ! لن تَسمحَ لِمِثْلِ هذا المَصير
أن يَحِلَّ بأخيها ! ألموتُ له أفضل !

وسارت قليلاً فرأت بئراً أُخرى . وقبلَ أن تُدلِيَ بقربتها فيها خاطبَتْها قائلة :

— يا بير يا بير ، إن شَربَ أخي منكِ ماذا يَصير ؟

فدوَّى صوتٌ من داخل البئر :

— إن شرب أخوكِ من مائي أصبحَ حَيَّةً رَقْطاءَ !

وتركَتْها « هند » وهي لا تَدري ما تفعلُ . « فسعد » قد أشرَفَ على الموت ، وما له من دواء سوى قطرةِ ماء . وراحت تركُضُ على غيرِ هُدَى بين الآبارِ الباقيةِ ، وكلّما سألت بئراً أتاها الجوابُ :

« إن شرب أخوكِ من مائي أصبح دُبّاً ، أو ثعلباً ، أو غراباً ، أوِ عقرَباً ... » فلا يَزيدُها ذلك إلاّ

حزناً ويأساً . وأخيراً وصلت إلى بئرٍ صغيرة يكاد خَريرُ مِياهِها لا يُسمَع ، فسألتها بصوتٍ مخنوق :

— يا بير يا بير ، إن شرب « سعد » من مائكِ ماذا يَصير ؟

فأجابتها البئرُ :

— إن شرب أخوكَ من مائي صار غَزالاً لطيفاً .

وعصَفَت الفَرْحَةُ « بهند » ، وصَفقت ، وراحت تُرَدِّدُ بصوتٍ عالٍ : « غزال ! غزال ! إنَّه لَحيوانٌ جميلٌ أنيس ! » وأسرعت تملأ قِربتها من ماء هذه البئر ، ثم انطلقتْ إلى أخيها تَسقيه منه . وما إن شرب « سعد » حتى عادت إليه الحياةُ ، فَنَظَرَ إلى نفسه وإلى أخته غيرَ مصدِّقٍ ما يَرى .

وما هي إلاّ ثوانٍ حتى غابت الشّمسُ ، فانطلقت
للحال من جوفِ الآبارِ أصواتُ الحيواناتِ التي
تسكُنُها : كنتَ تسمعُ زئيرَ الأسَدِ ، وعُواءَ
الذئب ، ونُباحَ الكَلْبِ ، وخُوارَ الثورِ ، وثُغاءَ
الشّاةِ ، ورُغاءَ الجَمَل ، وفَحِيحَ الأفعى ، في
اختلاطٍ غريب مُخيف .

وما كان « سعد » و« هند » — وقد أخذ الخوفُ
والاضطرابُ منهما كلَّ مأخذٍ — إلاّ أن حثّا
الخُطى ، وبَقِيا على هذه الحالِ حتى اختفت الغابةُ
عن أنظارهما ، وزالت الأصواتُ من آذانهما .

★

أشرفا من بَعيدٍ على مدينةٍ تُشِعُّ منها أنوارٌ
تفرّقت هنا وهناك . ولمّا اطمأنّا إلى أنهما قطعا
المناطقَ المسحورة الخَطِرَةَ وبَلَغا بلاداً آمنةً ، قطفا

بعضَ الأثمار البرّيّة وأكلاها ، ثم استلقَيا تحت شَجرة
وارفةِ الظِّلالِ ، واستَسلما لنومٍ عميق .

وفي اليومِ التالي استيقَظت « هند » على نُباحِ
كِلابٍ تُحيطُ بها من كلِّ جانب ، فانتفضت مذعورة
وراحت تَبحثُ بأنظارها عن « سعد » ، ولكنّها لم
تَقَع له على أثَر ! وفجأةً وقع نَظَرُها على مَشهدٍ
غريب : رأت غزالاً صغيراً تُحيطُ به الكلابُ وهي
تنبَحُه بشِدَّة ، فما كان منها إلاّ أن رمَت بنفسها على
الكلاب الهائجةِ ، وأسرعت إلى الغزال الضّعيفِ
تَضُمُّه إلى صدرها وهي تبكي وتَصيح :

— يا أخي المِسكين ! يا أخي المسكين !

وسمعت صوتاً يأمُرُ الكلابَ بالابتعاد ، فنظرت
« هند » إلى مَصْدَر الصوت ، فرأت شابّاً جميلاً يمتطي
حصاناً أصيلاً وهو يَنْظُر إليها باستغراب .

صاحت « هند » :

ـ سيِّدي ، أتوسَّل إليك ان تبعِدَ هذه الكلاب عن شقيقي ! إنَّه يكادُ يموت من الخوف !



« هند » مع أخيها « الغزال »

وأشارت بيدها إلى الغزال الذي تَحتَضِنُه . وردَّ الفارسُ بدَهْشةٍ :

ـ ماذا تقولين يا فتاةُ ؟! أهذا الغزال شقيقُكِ ؟! لا بُدَّ أنَّكِ تَهْذِين من شِدَّة الجزَع . لا تخافي ، فإن كِلابي مُسالمةٌ .

وعادت « هند » تتوسَّلُ إلى الشابِّ الغريب وهي تُمسِكُ بأخيها الذي اسْتَحالَ غزالاً :

ـ سيِّدي ، أرجوكَ ! أبْعِدِ الكلابَ عنّا . وسوف أُخبرُكَ بقصَّتنا .

نَزَلَ الشابُّ عن مَطيَّته ، وتقدَّمَ من الفتاة فأجلَسَها إلى جِذْعِ شجرةٍ ، ثم سقاها شيئاً من الماء . ولمّا استعادت قوَّتَها ورَباطَةَ جَأشِها راحت تَقُصُّ عليه ما جرى لشَقيقها ساعةَ وُلوجِها الغابةَ المسحورةَ ، وكيف سَقَتْه من إحدى آبارِها .

فصدّق الشابُّ قصّتها ، لأنَّ أخبارَ المنطقةِ المسحورةِ
كانت معروفةً في تلك الديارِ . ورقَّ قلبُ الشابِّ
على الفتاة ، فحملَها وشقيقَها الغزال على جواده ،
وانطلقَ بهما إلى قصره .

★

كان الشابّ يُدعى الأميرَ « حسّان » ، وهو
أميرُ تلك المنطقة . وقد خرجَ فجْرَ ذلك اليومِ إلى
الصَّيد ، فقاده نُباحُ كلابه إلى حيث كانت « هند »
والغزال . ولمّا وصلَ إلى قصره أخبرَ والدته بأمر
الوَلَدين ، فاستقبَلَتْهما أحسنَ استِقْبالٍ لأنّها علمت
بحالهما وبما حلَّ بهما من مَصاعبَ . وأمرت لهما
بالطعام ، ثمَّ أمرت « لهند » بالثياب الجميلة . ولَكِنْ
كانت دَهْشةُ الأميرِ « حسّان » عظيمةً حين وقعتْ
عيناه على « هند » في زيِّها الجديد : رأى جمالاً ،

ورشاقةً ، ونُبْلاً ، ورأى في عينَيها بَريقاً من
شُعاعٍ أخّاذ .

عاشت « هند » في القَصر ضيفةً مكرَّمةً معزَّزة .
لكنَّها أخْفَتْ عن الجميعِ هُويَّتَها الحقيقيّة .. كانت
تتقصّى أخبار البلادِ المُجاورةِ علّها تَصِلُ إلى دليلٍ
يُرشدُها إلى مَقرِّ جدِّها . ورغِبَت « هند » من
صَميم قلبها في أن تُخبرَ « حسان » بحقيقةِ أمرِها ،
لكنّها خَشِيَت أن لا يصدِّقَها ، فآثرت السُّكوتَ إلى
أن يَحين الوقتُ المناسِب .

وهكذا دفنت سرَّها في صدرها . وصَرَفَتْ
همَّها إلى مُعالجة أخيها ، فطلبت من الأمير « حسان »
أن يُساعدَها في فكِّ السِّحْر عن « سعد » وإعادتِه
إلى حالته الطبيعيَّة . فدعا الأميرُ عُلماءَ مملكتِه
واستشارهم بأمر الغزال ، ولكنَّ جُهودَهم ذهبت

أدْراجَ الرِّياح ، فبقي «سعد» على حاله : غزالا
صغيراً أليفاً لطيفاً ...

٥

... مرّتِ الأيّامُ سنةً بعد سنة ... « هند »
تكْبَرُ شيئاً فشيئاً وتُصبح صبيّةً فاتنة ، و« حسان »
يزداد بها إعجاباً ولها حُبّاً . وأخبر أمّه برغبته في
اتّخاذ «هند» زوجاً له فلم تُمانع . وعرضَ الفكرة
على « هند » فقبلت ، وبخاصّةٍ بعد ما كادت تيأسُ من
شِفاء أخيها . وهكذا نعِمتْ «هند» بقُرب زوجِها
الأمير ، ولم يُنغِّص حياتَها إلاّ ما كانت تراه من
أمر « سعد » . ولكمْ قضتْ ساعاتٍ من ليلِها
ونَهارِها تَبكيه وهي تدعو اللهَ أن يُعيدَه إلى
سابق عهدِه .

مضت على زواج « حسان » و« هند » سنةٌ . وكم

كانت فرْحَةُ « حسان » عظيمةً حين أعْلَمَتْه « هند »
في أحد الأيّام أنّها حاملٌ ! لقد أنعشَ النبأُ نَفْسَه ،
وملأَ حياتَه بالمواعيد الحُلْوَة ! يا لَسعادتِه ! سعادةٌ
« بهند » ، الزّوجِ الحبيبةِ الطّيّبة ، وسعادة بالولَدِ
المَوْعودِ ! وراح يَزدادُ في معاملة « هند » حبّاً على
حبٍّ ، وعنايةً على عنايـة ، حتى أصبحت شُغْلَه
واهتمامَه ومِحْوَرَ وجوده !

★

في إحدى الامْسيّات دخلت « دلال » ، ابنةُ عمِّ
الأمير ، على الزّوجَين ، ورَغِبَت إلى « هند » أن
ترافِقَها وصُوَيْحِباتِها غداةَ غدٍ لقضاء يومٍ في إحدى
الغابات . لم يُوافقْ « حسان » في بادىء الأمرِ
خوفاً على صِحّة زوجه وقـد أصبحت على وَشْك
الوِلادة . ولكنّهُ لمحَ في عينَي « هند » رغبةً في تلبية

الدَّعوةِ . وزادَه مَيْلاً إلى قَبولِ الدَّعوة أنّ « دلال » أَقْنَعَتْه بقولها :

— لِمَ الخوفُ على « هند » يا ابنَ العَمّ ؟ ستعودُ إليكَ مساءَ الغدِ مُورَّدةَ الخدَّين ، تامَّةَ العافية . إنّ الجَنينَ الذي في بَطْنها بأمسّ الحاجة إلى الشمس والهواء .

وهكذا وافقَ « حسان » على أن تَخرُجَ « هند » في الصَّباح التالي مع « دلال » . وخرجت « دلال » وهي تَبْتَسِمُ سِرّاً لنَجاحِ خُطَّتِها .

كانت « دلال » تبغِضُ « هند » وتُضْمِرُ لها شرّاً . لقد أَحبَّت ابنَ عمّها « حسان » منذ الصِّغَرِ ، ونشأت على فكرة الزواج به . ولولا دُخولُ « هند » في حياة « حسان » لكانت هي ، « دلال » ، اليومَ ، زوجَ الأميرِ ورفيقةَ عُمره . لذلك قَرَّرت أن تتخلَّصَ من

« هند » الدَّخيلةِ علَّها تستَعيدُ ابنَ عمّها ، فأعدَّت خُطَّةً شِرّيرةً فيها هَلاكُ « هند » ، وها هي الخُطَّةُ قد خطَتْ في طريق النَّجاح خُطْوَتَها الأولى !

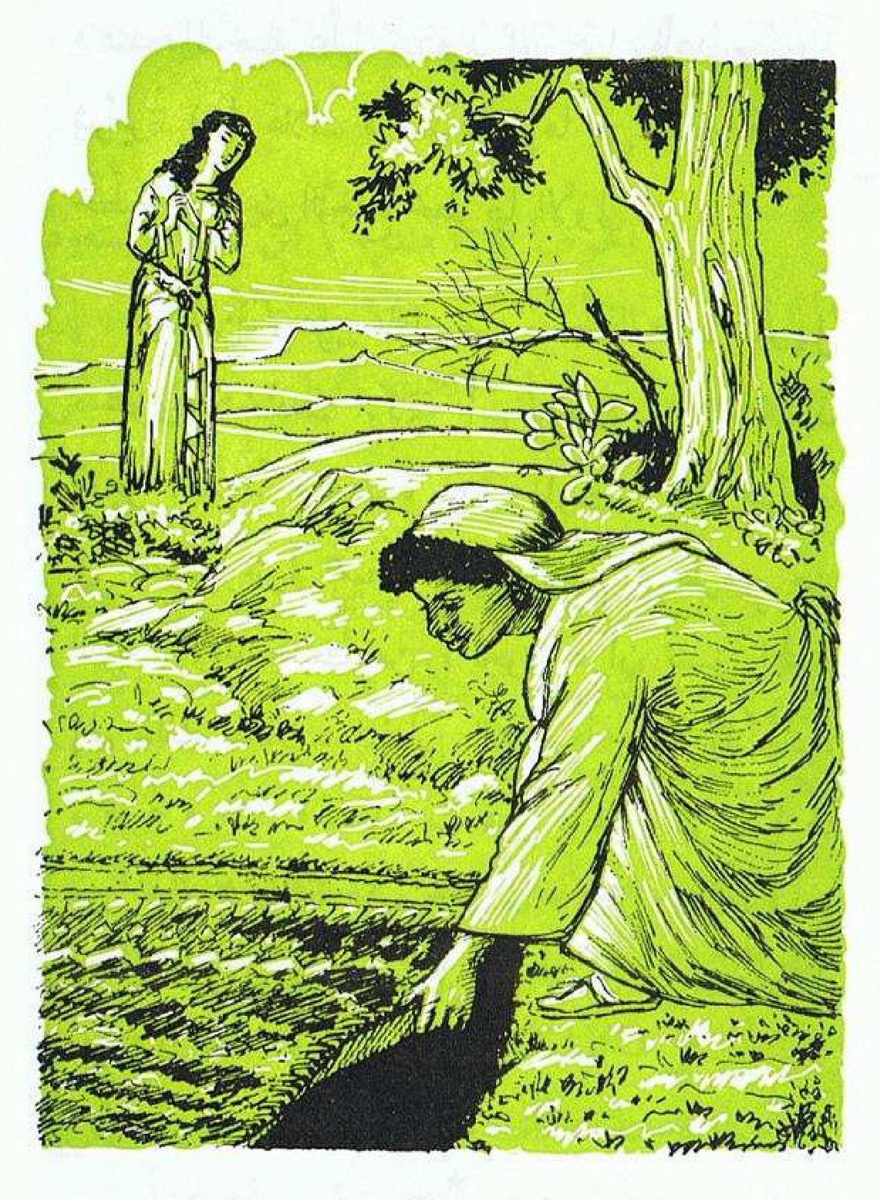
ولكنْ ، على ماذا تَقومُ خُطَّتُها ؟ ستُرسِلُ « نجوى » ، خادمتَها وكاتمةَ أسرارِها ، إلى الغابة منذ الفَجْرِ ، لتُعِدَّ « لهند » سَبيلَ الموت . لقد عرَفتْ في طفولتها بئراً عميقةً خطِرَةً تَقومُ في طَرَفٍ من الغابة ، وقد طلبَتْ من « نجوى » أن تَسْبِقَ الجميع إلى ذلك المكانِ ، فتُغَطّيَ البئرَ وما حولَها بالسَّجّاد ، وتُفْرِدَ « لهند » مَقْعَداً منه فوق فُوَّهةِ البئر ! يا لها من خُطَّةٍ شَيطانيَّةٍ ضحِكَتْ لها « دلال » في أعماقها ! لا بُدَّ أن تَستعيدَ « حسان » ! لا بُدَّ من القَضاء على الدَّخيلة !

★

في صباح اليوم التالي سارت « هند » إلى الغابة مع « دلال » وصَواحِبِها . كانت سعيدةً تُمَنِّي النَّفْسَ بقضاءِ يومٍ من أيّامِ العُمر الرائعة . وحاولَ « سعد » اللِّحاقَ بأختِه ، ولكنَّ « دلال » نَهَرَتْه سِرًّا وأبعَدَتْه عن « هند » ، فاضْطُرَّ إلى العَودةِ .

مضى النهارُ سريعاً ، بين الضَّحِك واللَّعِب والأكلِ اللّذيذ . وفيما الجميعُ يَستريحون قليلاً أشارت « دلال » إلى السجَّادة التي تُغَطِّي فُوهةَ البئر وقالت :

ــ إنَّ هذا المكانَ الهادئَ مُعَدٌّ « لهند » وَحدَها . ستَرْتاحُ فيه قليلاً من عَناءِ هذا النَّهارِ رَيْثَما نَذْهبُ نحن إلى المَرْج ونَقْطِفُ لها الأزهارَ البرِّيَّة الجميلة .



« دلال » تنظر كيف غطّت « نجوى » البئر

ثم تابعتْ كلامَها مُخاطِبةً « هند » :

ــ لقد وعدتُ ابنَ عمّي بالسّهر عليك ، وإنّي لَفاعِلَةٌ . عليك بقِسْطٍ من الراحة ، فهي ضروريّةٌ لك . وقد أعدّت لك « نجوى » المكانَ ، فما عليك إلاّ أن تتمدّدي فتُصيبي بعضَ الاستِرْخاء .

ــ لا أرْغبُ في الراحة يا « دلال » . أنا سعيدةٌ بصُحْبَتِكنّ .

ــ إنّها ساعةٌ واحدة نَغيبُها عنك يا « هند » . قومي إلى هذا الرُّكن الهادىءِ بعد ذهابنا ، وانتظرينا .

أذعنت « هند » لَمشيئة « دلال » ، فبقيت في مكانها ، فيما انطلقَ الجميعُ إلى المرْج ... إنطلق الجميع إلاّ « نجوى » : فقد وَقفت خَلْفَ إحدى الأَشجارِ تُراقِبُ « هند » سرًّا . ومـا هي إلاّ

دَقائقُ حتى اتّجهت « هند » إلى المكان المُعَدِّ لها فوق البئر ، وهي لا تَدري من أمر المَكيدةِ شيئاً . وما إن وطِئتْ قَدَماها أواسِطَ السَّجّادة حتى هَوَتْ في البئر وغابت عن الأَنظار . وأخذت « هند » تصيحُ بلَوعةٍ تُفَتّتُ الأكبادَ ، ولكنّ البئرَ عميقةٌ ، فلم يسمعْ صوتَها إلاّ « نجوى » .

قامت « نجوى » تَعملُ بنَشاطٍ لإخفاء مَعالِمِ الجريمة ، فنقَلت السجّادَ والأرائكَ التي كانت في ذلك المكان إلى مكان آخرَ من الغابة يُشبِهُه شَبَهاً غريباً . هكذا جرى الاتّفاقُ بينها وبين « دلال » . حتى إذا ما عادت « دلال » وصواحِبُها من المرج إلى المكان الجديدِ لم تَفطَن أيٌّ منهنّ إلى التّغيير الذي طرَأ ، وظَنَنّ جميعاً أنّهنّ عُدْنَ إلى المكان الذي كنّ فيه .

وفجأة علا صراخٌ حاد ، فهَرْوَلَ الجميعُ على عَويل « نجوى » . كانت تبكي وتوَلْوِلُ :

ـ ويلي أنا !.. لقد اختفت الأميرة «هند» .

وبادرَتها « دلال » وقد تظاهرت بالحيرة والاستغرابِ :

ـ ماذا تقولين ؟! « هند » اختفت ؟! رَبّاه ! أفصِحي يا نجوى» ...

وزاد بكاء « نجوى » ، واشتدَّ عويلُها . وبصوتٍ متقطّعٍ كلّه خُبثٌ ورياءٌ أخذت تُخبِرُ القصَّة الكاذبة التالية . قالت :

ـ على أثَرِ انصرافِكُنَّ إلى المَرْجِ رفضتْ « هند » الاستراحةَ في المكان المُعَدّ لها ، وقامت لتوّها إلى الأشجار تُداعِبُ أوراقها وتجني من ثِمارها .

وكنت أُراقبُها في السرّ وأُرافقُها بنظري . ولمّا اطمأنَّ قلبي إلى سَلامتها قُمتُ إلى تهيئة الطعام . وبعد بُرْهَةٍ أجَلْتُ النَّظَرَ في المكان الذي كانت فيه الأميرةُ فلم أجِدْ لها أثراً ! ناديتُها ، فلم تُجِب . رفعتُ صوتي بالنِّداء تَكْراراً فلم تُجب . فما كان منّي إلا أن تركتُ عملي وأسرعتُ إلى داخل الغابة أناديها ، ولكنْ من غير جَدْوى ! فتّشتُ الغابة شِبْراً شبْراً ، ولكنّ مولاتي اختفت كأنَّ الأرضَ قد ابتلَعَتْها !

وعادت « نجوى » تَلْطِمُ خدَّيها وتقولُ نائحةً :

ـ وَيْلاهُ ! ماذا يقولُ الأميرُ « حسان » عنّي؟ ماذا يَحِلُّ بي من غضبه وانتقامِه؟

خيّم الوُجُومُ على الموجودات . كُنَّ لا يُصدّقن ما يَسمَعْنَ ! أهكذا تختفي الأميرةُ « هند » كأنَّ شيئاً لم يَكُنْ ؟ أمّا « دلال » فقد تَظاهرت

بالحُزْنِ والخوفِ ، وراحت تذرِفُ الدموعَ لائمةً نفْسَها على تركِها الأميرةَ وحدَها . ثم قُمْنَ جميعُهنّ يبْحثْنَ عن « هند » في أرْجاءِ الغابة ، ولكنّ تعبَهُنّ ذهبَ سُدًى .

وغابت الشمسُ ، فقرَّرن العودة إلى القصر .

★

ما إن سمعَ « حسان » بالنبإ المُفجِعِ حتى هَبَّ مع نُخْبَةٍ من رجاله إلى البَحْث عن زوجه الحَبيبة . لم يترُكوا زاويةً في الغابة إلاّ فتَّشوها . لم يتركوا أحداً إلاّ سألوه . لم يتركوا بيتاً ولا كوخاً إلاّ دَخلوه . ولكنْ لا أثرَ « لهند » !

ولمّا عادوا إلى القصر كان الصُّبحُ قد بدأ يلوحُ . وما إن أصابَ الأميرُ من الراحة قدْراً يسيراً حتّى عاد إلى الغابة في جماعة أُخرى من رجاله . ولكن

البَحْثَ طوالَ النهارِ لم يُسْفِر إلاّ عن خيبةِ أملٍ جديدة .

كاد الأميرُ يُجَنُّ من حَيرته وخوفِه . كيف تَضيعُ في الغابة فتاةٌ « كهند » ، وهي التي ألِفتِ المَخاطِرَ ، وقطعت المنطقةَ المسحورة ونَجت من شرّ آبارِها ؟ لو أنَّ الوحُوشَ افترَسَتْها لوَجد أثراً يدُلُّ عليها : ثوباً ، وشاحاً ، مِنْديلاً ، دماً .. أيّ شيء .

وبدأت الشُّكوكُ والوَساوسُ تغْمُرُ قلبَه . لا بُدَّ من يدٍ شرّيرة آثِمةٍ قد أوقعَتْ « بهند » ! ولكنْ مَن يَبْغي بهذا المَلاكِ الطاهرِ شرّاً ؟ ربّما أرادَ أحدُ الأعداء الانتقامَ منه بها !.. ولكنْ ما ذَنْبُها هي ؟ وما ذَنْبُ هذا الجَنينِ في أحْشائها ؟

★

عَلِمَ « سعد » باختفــاء « هند » . وفَهِمَ من الأحاديث التي كان يَلْتَقِطُها دَوْرَ « دلال » في المؤامرة .

صَمَّمَ على إنقاذ أُخته ، فانسلَّ في الصَّباح الباكِر خارجَ القصرِ ، وأخذَ يَعْدو عَدْواً شديـــداً . وساعَدَتْه الغَريزةُ الحيوانيَّة التي اكْتَسَبَها على شَمِّ آثار أُخته ، فراح يَتَتَبَّعُها في مداخل الغابةِ ومَعارِجها ، إلى أن وَصَلَ إلى البئر . هناك فَقَدَ كلَّ أَثَرٍ لأُخته . تَطَلَّــعَ حولَه متسائلاً حائراً . ولكنَّ الآثار توقَّفت هنا !

وفجأةً سمعَ بُكاء طفلٍ صغير ، فاهتزَّ خوفاً واضطِراباً . تقدَّم من فوهة البئر وصاح :

ــ « هند » !.. أُختاهُ !

يا الله ! لقــد نَطَقَ « سعد » وتكلَّمَ كأنَّه

بَشَريٌّ ! يا لَلأُعجوبة ! حقّــاً إنَّ الله يُحِبُّ الصالحين الأَبرياء !

وسمعَ « سعد » صوتَ « هند » يَنتهي إليه من أَعماق البئر ضعيفاً خافِتاً :

ــ «سعد» !.. يا أَخي الحبيب !.. أأنا في حُلمٍ أم في يَقْظة ؟ أَحقًّا تكلَّمتَ ؟!

ــ أَجلْ يا أُختيَ المسكينــة ! أنا « سعد » ، وقد تكلَّمتُ . لا تخافي ، فإنِّي ساعٍ إلى خَلاصك .

ثم أخبرَتْه «هند» بتَفاصيلِ قِصَّتها ، وبأنَّها قد وَلَدَتْ طفلَها بعد السَّقْطَة المُريعةِ التي تعرَّضت لها . وقال لها « سعد » :

ــ أَرشِديني يا أُختي إلى طريقة إنقاذِك ، فقد أَفقِدُ النُّطقَ ثانيةً ، وأَبيتُ عاجزاً عن مساعدتك .

ـ عُدْ إلى القصرِ حـالاً . حاوِل أن تخبر
« حسان » بأمري مهما تكُنْ حالُك . ولكنْ إيـّاك
أن يَعلَمَ أحدٌ بأنّي ما أزالُ على قيد الحيـاة !
إحذرِ الخدَمَ جميعَهم ! إحذرْ « دلال » ، فإنّي واثقةٌ
من أنـّها صاحبةُ الخُطّةِ الشّرّيرة !

إنطلق « سعد » إلى القصر بأقصى سرعتِه ، فدخلَه
خِلسةً لئلاّ يُنبِّه أحداً من المتآمرين إلى أمره . ولمّا
نام الجميعُ دَخلَ غرفةَ الأميرِ ، فوجده نائماً . راح
يناديه بصوتٍ عالٍ ، ولكنّ الكلمات تجمّدت في
حَلْقِه ، فلم يَخرُجْ من شفتيه سوى ثُغاءِ غزالٍ
ضعيفٍ ! لقد حُرِمَ النُّطقَ من جديد ! ولكنه لم
يتردّد ، فقفزَ إلى سرير « حسان » وشدّه من ثيابه ،
فاستيقظ الأميرُ مذعوراً . ولمّا شاهدَ « سعد » ربّتَ
ظهْرَه بعطفٍ ، ثم حمَله بين يديـه إلى حيثُ كان
مرْقده .

بكى « سعد » في مرقده بُكاءً مُرّاً . كيف له
أن يُخبِرَ الأميرَ بوجودِ « هند » ؟

وفي صباح اليومِ التالي دخلَ « حسان » إلى غرفة
« سعد » ، وحملَه بين يديه إلى مائدة الطّعامِ وأخذ
يُلقِمه كالطِّفلِ الصغيرِ وهو يُخاطبه قائلاً :

ـ يا « سعد » يا مسكين ، كم نحن شقيّان
بائسان ! أنتَ فقدْتَ أُختاً ، وأنا فقدتُ زوجاً !
تُرى ، ماذا جرى لها ؟

وراحت الدموعُ تنهمرُ غزيرةً من عينَي « سعد » .
ثم قام إلى ثياب « حسان » يَشدُّه بها إلى الحديقة ،
والأميرُ يُجاريه متعجّباً من تصرُّفه . واستمرّ « سعد »
يَشُدُّه حتى قاده إلى حظيرة الخَيلِ ، ثم قفزَ إلى
ظَهْرِ حصانِ الأمير المفضّل كأنّه يَطلُبُ إلى الأمير
أن يَفعلَ فِعْلَه . وابتسمَ الأميرُ لحركاتِ « سعد » ،

وأرادَ مُطاوَعتَه حبّاً له وشَفقَةً عليه ، فحَــذا
حَـذْوَه وامتطى صَهْوَةَ جوادِه . ولكنَّه كان في
حَيرةٍ من أمره ! لماذا يُحــاوِلُ « سعد » جرَّه إلى
الخارجِ ؟

ولمّا وجَّــهَ « حسان » فرسَه إلى خارجِ
حديقة القصرِ إذا به يرى « دلال » تُسرع إليه وهي
تصيحُ :

ــ إلى أين يا ابنَ العمِّ ؟ هل لي بمرافقتك ؟

وفطِنَ « سعد » لغايـةِ « دلال »، وخـافَ على
خُطّته من الإخفاق ، فشدَّ إليه الأميرَ خِفْيَةً . وفهم
الأميرُ أنّ في محاولة « سعــد » سرّاً ، فالتفتَ إلى
« دلال » وقال لها :

ــ آسِف يا ابنةَ العمّ . إنّي مُنطَلِقٌ في عَمَلٍ ،
وأرجو أن أكونَ وَحيداً .

ــ إن كنتَ حقّاً طالبَ وَحْدةٍ في رحلتك ،
فلماذا لا تُنْزِلُ الغزالَ عن فرَسِك ؟

وشـدَّ الغزالُ الأمـيرَ ثانيةً شدّاً مؤلماً ،
ففهم الأميرُ رغبتَــه في مُرافقته . وقال « حسان »
« لدلال » :

ــ إنّه لغزالٌ لطيفٌ مسكين ! هو بحاجة إلى
النزهة والراحة ، فلا بأسَ في خروجه معي .

وانطلق « حسان » مــع « سعد » فيما وقفتْ
« دلال » تراقِبُهما . ولمّـا غابا عن الأنظار قفز «سعد»
إلى مقدّمة الجَواد ، فثَنى عِنانَه بعد جهْد ، ووجَّهَه
وُجْـهَةَ الغابة . وما كان تصرُّفُ « سعد » إلاّ ليزيد
« حسان» حَيرةً وعَجَباً .

جرى الحصانُ بسرعة فائقة . ولمّا توغّلَ الأمير

و « سعد » في الغابة أوقف « حسان » الحصان ، فقفزَ « سعد » أرضاً ، وتبعه الأمير . تلفَّتَ « سعد » يمْنَةً ويَسْرَةً كالباحثِ عن شيء ، ثم شدَّ « حسان » بثيابه إلى ناحية البئر.

نظرَ « سعد » إلى البئرِ وصاح:

ـــ « هند » ، يا أُختي الحبيبة ! كيف حالُك اليومَ ؟

وصُعِقَ الأَمير ! « سعد » يتكلَّم ؟ ومع « هند» ؟ أيُّ سرٍّ هو هذا ؟ وما لبِثَ أن سَمِعَ صوتاً خافتاً يجيب من داخل البئر:

ـــ هذا أنت يا « سعد » ؟ هل أخبرتَ « حسان » بأمري؟

وترَنَّحَ الأميرُ «حسان» من قوَّة المفاجأة ، و كاد

يُلقي بنفسه في البئر لموافاة زوجه الحبيبة . ولكنَّه تمالكَ نفسه ، وصاح بصوتٍ متهدِّج :

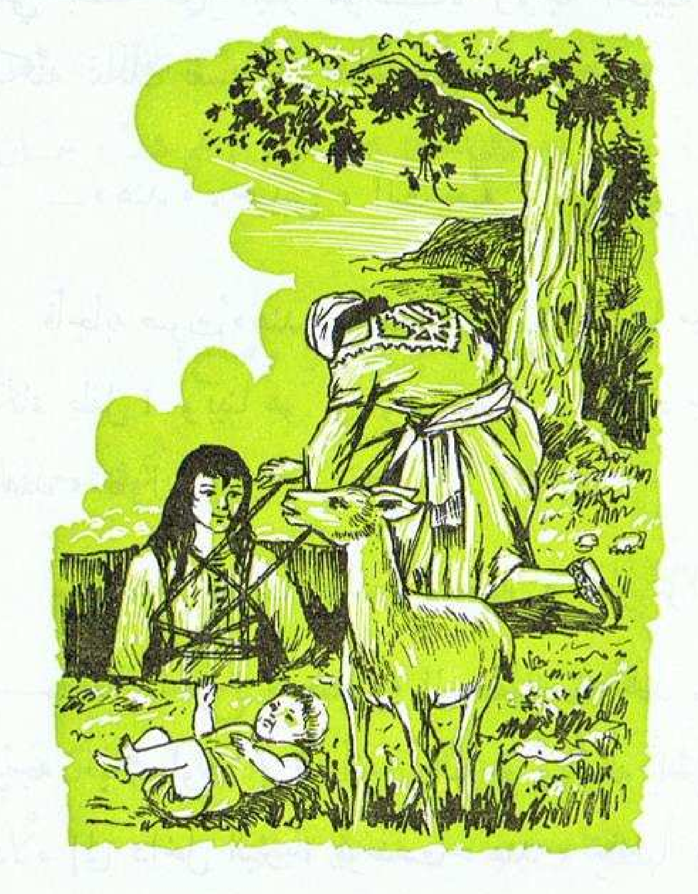
ـــ « هند » ، حبيبتي ، أنت حيَّة ؟! أنت بخير ؟!

فأجابه صوتُ « هند » مُطَمْئِناً ، ومع صوتها سمع بكاءَ طفل ! وبَينا هو في أوْج حَيرته وتساؤله سمع « هند » تقول :

ـــ أتَسمعُ صوتَ ابنِك يا « حسان » ؟ لو تراه!

وللحال أسرع « حسان » إلى حصانه ، فأخذ من سَرْجه حَبْلاً طويلاً ، ثم أنزلَ السَّرج ورَبَطَه بالحبل ودلَّاه إلى داخل البئر ، فوضعت « هند » طِفلها فيه وربطته ، ثم صاحت « بحسان » :

ـــ شُدَّ الحبلَ يا « حسان » ! إنَّ طفلَكَ قادمٌ إليك !



« حسان » يخرج ابنه وزوجه من البئر

وأخرج « حسان » طفله بحنوٍّ ، ثم وَضعه أرضاً ، فجلس الغزالُ بقُربه يَحرُسُه . وأنزل « حسان »

الحبل إلى داخل البئر فربطته « هند » حول خَصْرِها جيِّداً ، وأمسكتْ به بكِلْتا يدَيها . وما إن وَطِئتْ قدَماها الأَرضَ حتى ارتمتْ بين ذراعي زوجها ، فراحا في عناقٍ حارٍّ طويلٍ ودموعُ الفرَح تُبلِّلُ خُدودَهما .

★

ركِبَ الجميعُ عائدين إلى القصر . وفي تلك الأَثناءِ أخبرت « هند » زوجَها بتفاصيلِ المؤامرة ، فحزَّ في قلبه أن تكونَ ابنةُ عمِّه هي المدبِّرة لِما حصَلَ .

لمّا وَصلُوا إلى القصر أسرع « حسان » إلى غرفة « دلال » تَصحبُه زوجُه وعلى صَدرها طفلُها . وما كان أشدَّ دَهشَةَ « دلال » حين رأت « هند » تنتَصِبُ أمامَها حيَّةً تُرْزقُ ، وكأَنَّها قد

بُعِثتْ من الموت ! بقيت شِبْهَ مَصْعوقةٍ ، إلى أن تقدَّمت منها « هند » ببُطْءٍ وخاطَبَتْها بصوتٍ هادىء :

— لماذا فعلتِ هذا بي يا « دلال » ؟ لماذا ؟

إذ ذاكَ خرَّت « دلال » على قدَمَي « هند » تَطْلُبُ منها الصَّفْحَ والغُفران ، فسامَحَتْها « هند » فوْراً . إلاّ أنّ « حسان » تَدَخَّلَ وقال « لدلال » :

— لقد غَفرتْ لك « هند » ، وهذا دليلٌ آخرُ على كَرَم أخلاقِها . أمّا أنا فلي معك شأنٌ آخرُ : قومي الساعةَ واجْمَعي ما أنتِ بحاجةٍ إليه ، ثم غادِري القصرَ والبلادَ قبل شُروق شَمْسِ الغَد .

وهكذا كان .

٦

أطْلَعَتْ « هند » زوجَها على حقيقة أصْلها ، وطلبَتْ منه الصَّفْحَ لكِتمانها السرَّ عنه ، فاقتنعَ « حسان » بأعْذارها . ثم أخرجت من عُنقها السلسلة ، وأعطته الحليةَ التي فيها لتكون دليلَه في سَعيه وبَحثِه عن جَدِّها وخالتِها .

لم يَطُل البَحْثُ بالأمير « حسان » ورجالِه . فقد اهْتَدَوا في غُضُونِ أيّامٍ إلى بلادِ « هند » ، واتَّصلوا بجَدِّها وأخبروه بقصَّتها .

تحرَّكَ رَكْبُ الأميرِ « حسان » إلى بلاد « هند » ، وفي معيَّته زوجُه وفريقٌ من خاصَّته . كانت « هند »

لا تُصدِّق أَنَّها ستلتقي جدَّها ، أهلَهـا . مَن هم ؟ كيف هم ؟ كيف يَتِـمُّ اللِّقاء ؟ أخيراً كانَ لها ما أرادتْ ، وتحقَّقت أُمنِيَّة أُمِّها الراحلة ! ولكنَّ السعادةَ لا تَستقيمُ كاملةً لإنسان : فها هو أَخوهـا « سعد » ما يزالُ على صورةِ غَزال !

✶

كان اللقاء بين الأَهل لقاءً مؤثِّراً . بَقِيَ الجَدُّ يُديمُ النَّظَرَ إلى حَفيدته « هند » والدموعُ تَترَقْرقُ في عينَيه . يا الله ! إنَّهـا صورةٌ ناطقةٌ لخالتها « ياسمين » ! وفيما كان يَضُمُّ « هند » ويُحادثُ « حسان » والوَفْدَ المرافقَ له ، كان الغزالُ المِسكينُ يَمْسَحُ برأسه على رُكْبَتَي جَدِّه ، والجَدُّ يُرَبِّتُ رأسَه بين الحين والحين من غير أن يعلَمَ بحاله .

ولمـّا هَدأتِ العواطِفُ والانفعالاتُ أخذت « هند » تَقصُّ على جَدِّها وخالتِها قِصَّتَها . أخبرتْها بالآبار المَسحورةِ ، وبالعذاب والشَّقـاءِ اللَّذَين تعرَّضتْ لهما مع شقيقها « سعد » . ثم انفجرت باكيةً ، وبَكى معها كلُّ مَن في المَجلِس . والتفتَ الجدُّ إلى الغزال الذي بين يديه ، فرفَعَـه إلى صَدرِه وراح يقبِّلُه ويُداعِبُه بشكلٍ مؤثِّر .

وفي اليوم التالي أرسلَ الملكُ يَستدعي عُلماءَ مَملكتِـه ليستشيرَهم في أمر الغزال ، فأظهروا له عَجْزَهم عن مساعدته . ولكنَّ واحداً منهم أشارَ على المَلِك باستدعاء الشيخ الناسك ساكنِ الجبال ، ذلك الشيخِ الذي شَجَّعَ والدي « هند » و« سعد » على تَرْكِ البلادِ واقتحامِ المجهول . ولكنَّ المَلِكَ فَضَّلَ أن يَسيرَ هو إليه ، فَتَجهَّز للرِّحلـة في أسرعِ

وقت ، وتحرَّك إلى الجبال يرافقه حَفيده و« حسان »
ورَهْطٌ من رجال المملكتين .

قصَّ الملكُ على الشيخ قصَّةَ « سعد » ، وقصَّة « سعيد » و« سوسن » ؛ فابتسم الشيخُ مطَمْئِناً ، ثم قام إلى بئرٍ ليست بعيدةً فملأَ من مائها كأْساً سقى بها الغزالَ . وما هي إلاّ ثوانٍ حتى تحوَّلَ الغزالُ إلى فتىً وسيمٍ ، فأقبلَ عليه جدُّه يقبِّله بلوعةٍ وحُرْقةٍ كأنَّه يقبِّلُ ابنتَه الراحلةَ « سوسن » : كان « سعد » صورةً حيَّةً لوالدته !

★

إنتهت قصَّة « هند » و« سعد » كما تنتهي كلُّ قصَّة جميلة ، وتحقَّقت أمانيُّهما كما يتحقَّقُ كلُّ حُلْمٍ جميل ؛ فقد تزوَّج « سعد » بابنة خالته « ياسمين » ، وعيَّنه جدُّه وَليّاً لعهده . وقامت بين المملكةِ وإمارةِ

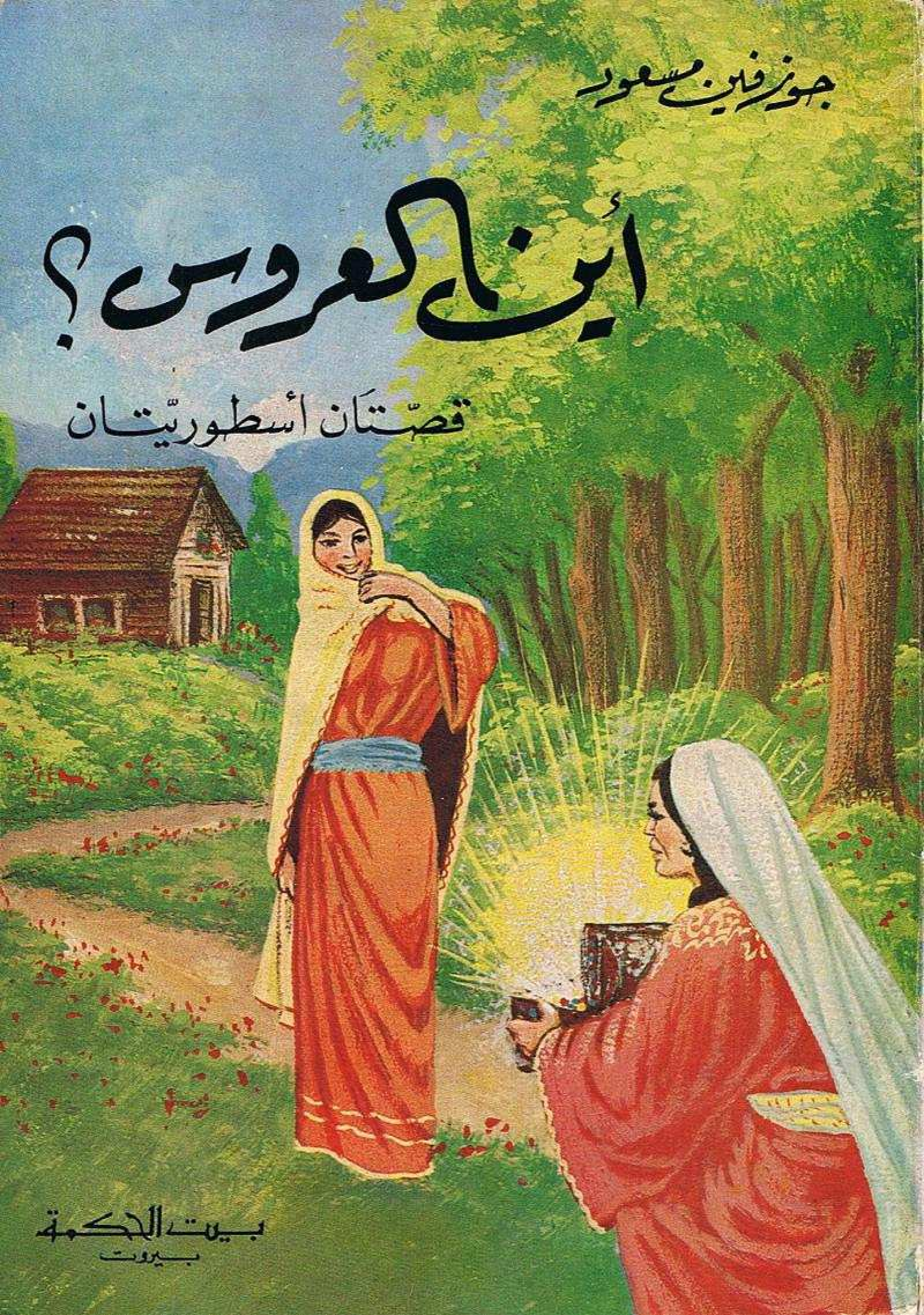
« حسان » محالفة وَثيقةٌ نَعِمَ بها « سعد » و« هند » ، إذ كانت العَلاقات بينهما شِبهَ دائمةٍ ، والزياراتُ متتاليةً .

وهكذا اطمأنَّ الأحياءُ في حياتهم ، واطمأنَّت نفسُ « سوسن » في الآخِرة .

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣١ ايار (مايو) ١٩٧٥، على
مطابع دار غندور ، ش.م.م. بيروت.

١٠٧/٥ - ١٩٧٥


جوزفين مسعود
أين العروس؟
قصتان أسطوريتان
بيت الحكمة
بيروت